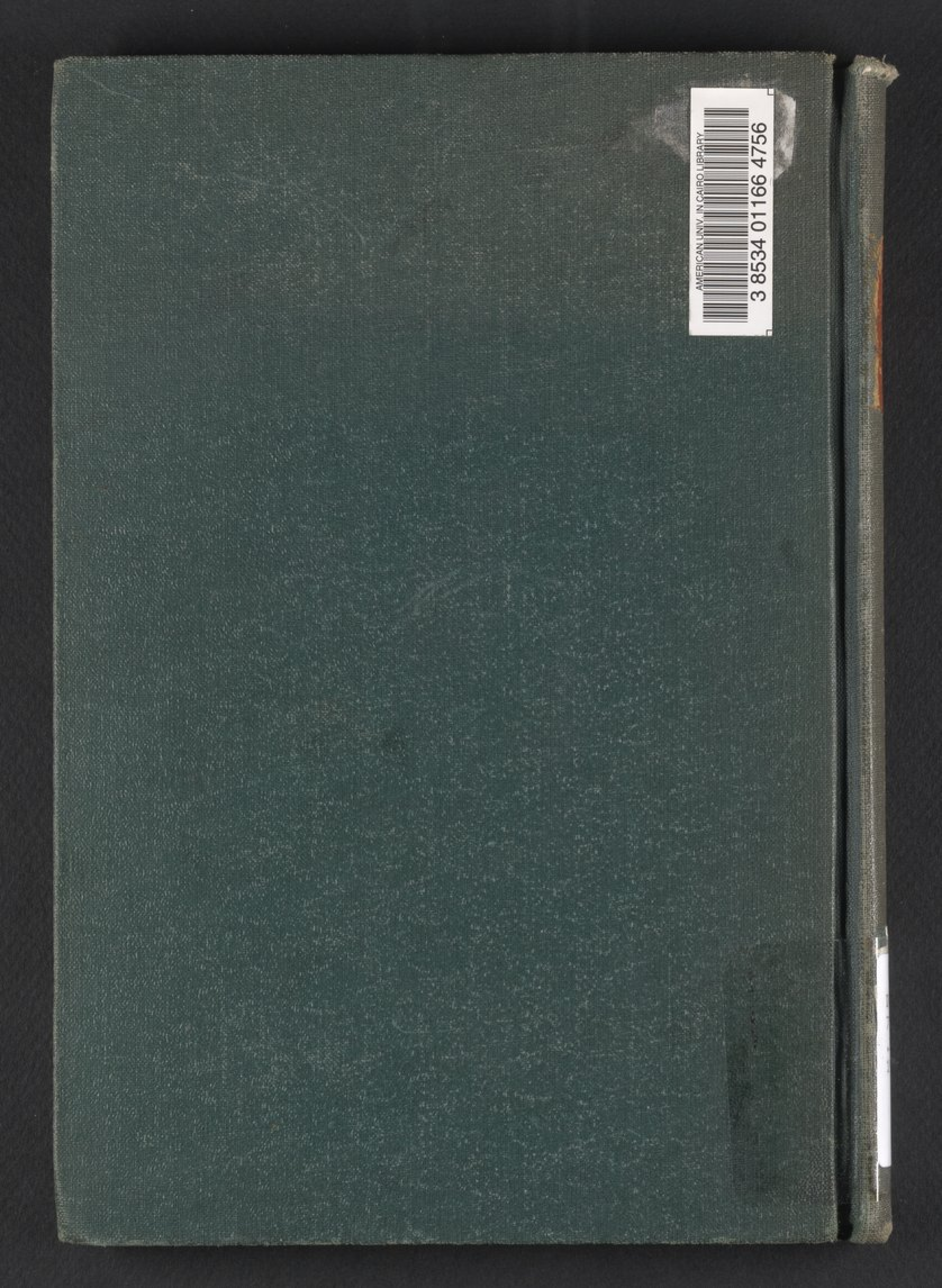
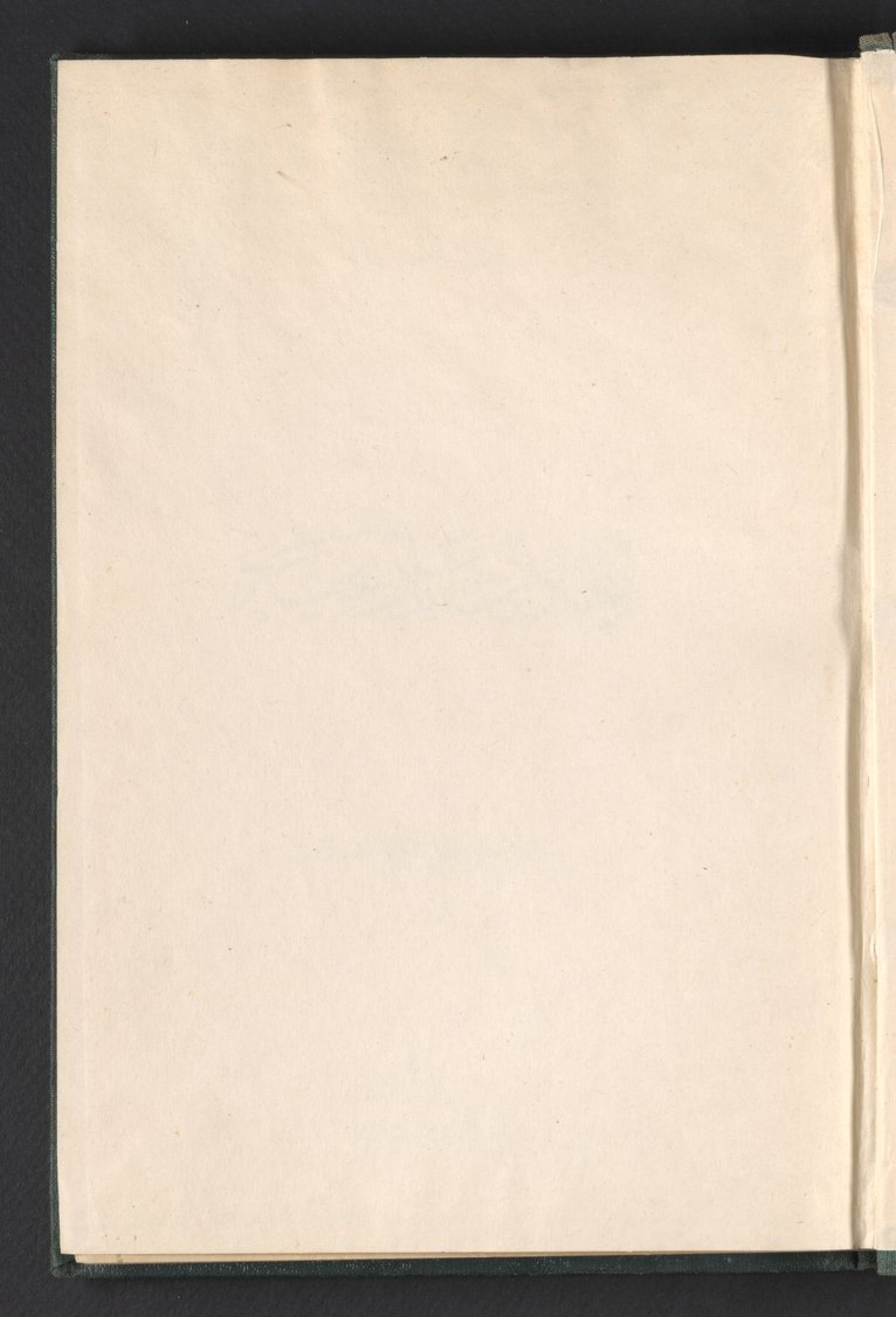
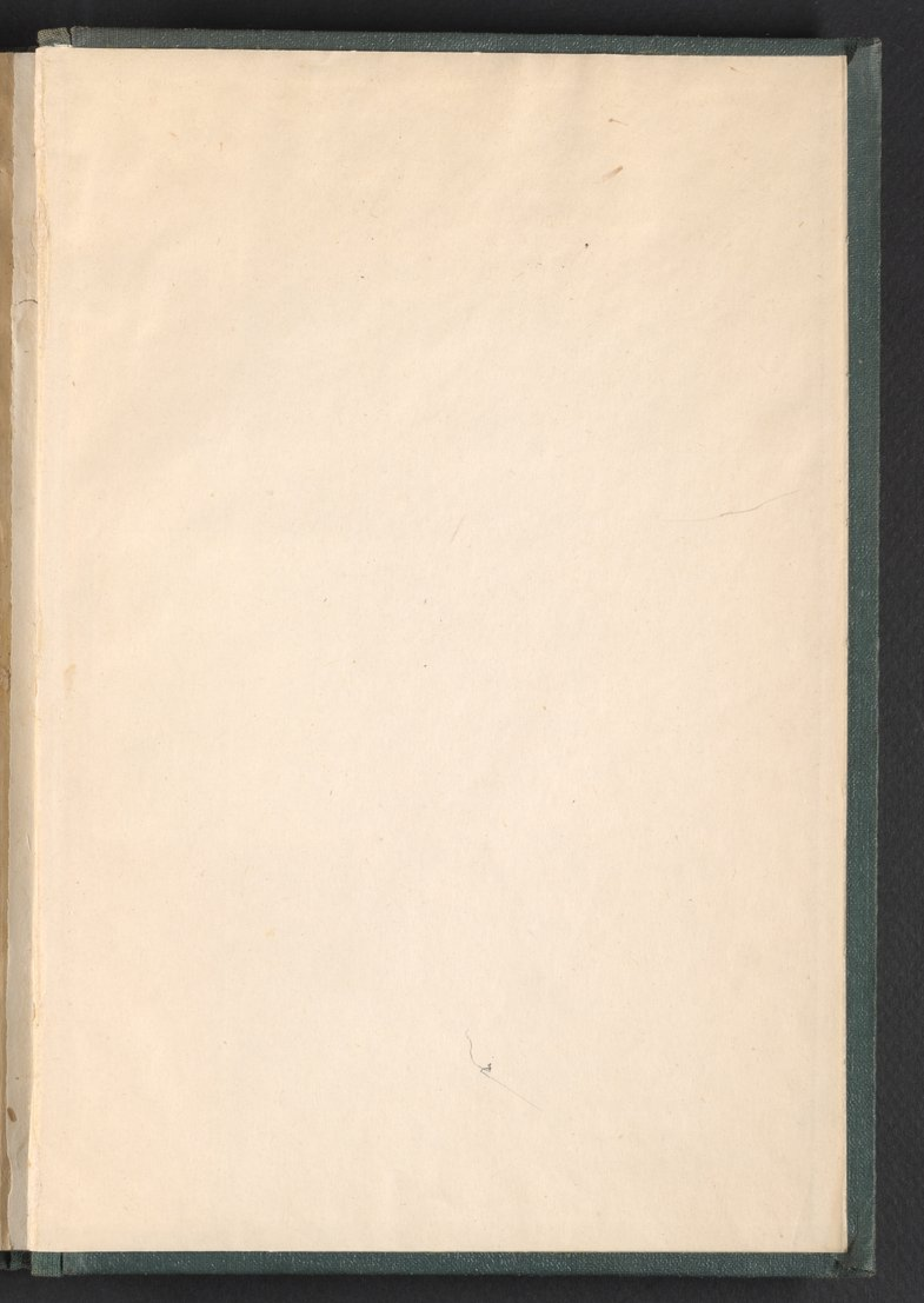

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01166 4756





بنت بطوطه



ترجمه من الفرنسية د. ن.

مطبعة حلبى بدمنهور

الاهداء

الى روح المغفور له عبد العزيز لطيف

فى شهر يونيو سنة ١٩٤١ طلبت منى أن أكتب هذه الأحاديث وكنت أود أن أهديها إليك وأنت منعما فى الحياة ولكن هى إرادة الله شاءت أن لا أهديها إلا إلى روحك الطاهرة وأنت بجوار ربك فى جنات النعيم ؟

بنت بطوطه

البحيرة فى شهر ذو الحجة ١٣٦١

حديث تاريخى

« ما يدين به العالم ومصر للعرب »

هلم نتحادث . أجل . نتحادث معا فى تاريخ مصر وما ينطوى عليه من أسرار وفواجع ومدهشات ما أكثر ما يصادفها المرء ويتألم منها ألما دائما إذ يصطدم بأغرب المفاجآت ويتعثر فى طريقه بأبعد الأمور عن الاحتمال ثم إذا به يجدها حقائق تاريخية ووقائع راهنة حيثما كان يظن أنه يسمع قصصاً خرافية نسجت خيوطها لأول وهلة فى رأس مؤرخ عبقرى كهوميروس .

إن فى تاريخ مصر من الحوادث ما يصعب تصديقه وما يعد خيالا مما لا يجد المرء له نظيراً فى تاريخ أى بلاد أخرى .

ويحسب عمر هذا التاريخ بألوف من السنين بل إن المرء ليجسر أن يرده إلى وقت انشاء العالم وخلق الانسان والأشياء ففى ذلك العهد المجهول والمحجوب بحجب الأسرار أقام انسان لا يعرف من هو هذا الأثر الغريب الذى يقال له أبو الهول وقل من يعرف كيف أقامه .. ولماذا أقامه ؟!

ثم انه ما من بلاد احتملت ما احتملته مصر من غزو أو بذلت مثل ما بذلته من ضحايا ، فمنذ الفراعنة إلى ملوك الرعاة ، ومنذ حروب مصر مع الفرس كما رواها هوميروس ، ومنذ الاسكندر وعهد الحكم اليونانى المقدونى الزاهر ، ثم من عهد السيادة الرومانية السيئة الظالمة إلى عهد السيادة البيزنطية المخيبة للأمل بما شب فى أثنائها من حروب عقائدية ومنازعات حزبية بين القبط أو اليعاقبة وبين الروم أو الملكيين — نقول منذ تلك العهود ما برح التاريخ يزداد حمقاً ويهز كيان هذا الشعب التعس الصابر المستسلم رغم أنفه ويقذف به من حضارة إلى حضارة أخرى إلى أن أصبح منهوك القوى .

ومن غريب انتقام القدر أن مصر التى عانت كل هذا التحقير امتصت — كما تمتص الأسفنجه الماء — جميع تلك السيادات ورغم ما تحملته من الانقلابات لم تفقد ميزاتها الجوهرية إلى ان جاءها الفتح العربى فكان عهد هذا الفتح فاصلا فى تاريخها .

لقد كان ذلك الفتح عملا من أعمال الجرأة وتغفلا ضخما ولكنه نجح .

غير ان هذا النوع من الغزو أصبح من الوقائع العادية والحوادث المألوفة فى بلاد كمصر انهكتها الحروب الأهلية وما تلاها

من اضطرابات واستهدفت لغزوات مستمرة وتسلط وفتح بعد فتح فى خلال الوف من السنين . واذا كان قد قدر للفتح العربى أن ينتهى بهذا النجاح فانه لم يقابل من مصر بشىء من التعجب بعد ما أصبحت لا تجد فى الحوادث ما يدعوها الى التعجب لأنها فقدت شعور السيادة والامتلاك وحمل التبعات . وخلت خلوا تاما من صفة الاقدام والابتكار وما يلازمها من إحساس أدبى باستنكار أعمال الفساد البيزنطية .

ومن وقت ان تلاشت سلطة الأمبراطورية الرومانية تدريجياً حتى عهد السيادة العربية احتفظت بيزنطة بسلطة فعلية لا فى مصر وحدها بل فى جميع بلدان العالم المتمدن إذ ذاك وأدى ذلك الى إلحاق الضرر البالغ بالشعوب الخاضعة لقوانينها الاستبدادية أو التى اجتذبها اليه اعصار تلك الحضارة المنحطة .

غير أن الفتح العربى جلب إلى مصر فى الوقت عينه عجبا جديداً : هو الاسلام .

ففى سنة ٦٤٠ فتح عمرو بن العاص مصر بشرذمة من الرجال ولم يبق شىء يقف فى طريقه أو يقاومه بعد سقوط منف والاسكندرية ولقد قيل أن عمروا لما استولى على الاسكندرية دمر مكتبة سيرابيون الشهيرة عملا بأوامر تلقاها من الخليفة عمر بن الخطاب

وهذه تهمة لا تثبت أمام فحص الوقائع .

ذلك انه عندما دخل جنود عمرو بن العاص المدينة فى سنة ٦٤٠ كانت المكتبة قد زالت من الوجود قبل ذلك بزمان طويل . إذ كان قد حرق جانب منها لأول مرة فى عهد يوليوس قيصر .

ولما حاصر غنيميدس قائد الجيش المصرى قيصراً فى السراى الملكية فى الأسكندرية وكان أهل الاسكندرية ضالعين مع بطليموس الثالث عشر ضد قيصر وكليوبطرا حاول هذا القائد الاستيلاء على الاسطول الرومانى الراسى فى الميناء بقرب المكتبة ورأى قيصر شبح الخطر فأمر رجاله بحرق السفن فلم تبق النار ولم تذر .

ولما كانت السفن قريبة جداً من مبانى المتحف والمكتبة فان هاتين التحفتين الفنيتين باتتا طعمة للنيران وحرقت معهما المجموعة العظيمة من الكتب التى جمعها البطالسة (١)

وفى سنة ٣٧٠ بعد الميلاد نهبت المكتبة للمرة الثانية فى أثناء التعذيب المريع الذى وقع على هيباتيا الفيلسوفة الوثنية الشهيرة وقد مثل بها رهبان متعصبون فى شوارع الاسكندرية !

---

(١) كتاب « مصر من عهد مينا الى أيامنا » للاب هنيو ص ١٢٣

وأخيراً سلبت المكتبة مرة أخرى وحرقت عن آخرها بوحشية لا مبرر لها ارتكبها رهبان طيبة دعاة تحطيم الصور والتماثيل وكان ذلك فى نحو سنة ٣٧٥ فى حكم تيودوسيوس .

وبعد ما أتم عمرو بن العاص فتحه لمصر شرع فى صبغها بالصبغة العربية ولم تكن مصر فى الواقع أمة سامية ولا عربية بل ولم تكن قط يونانية ولا رومانية ولا بيزنطية ولا نذكر من مقامها وهيبتها الماضية الا صورة غامضة جداً .

ولا ننكر أن عمروا أدخل مصر الذاهلة المتحيرة فى حظيرة الاسلام ، وبعد ما ضرب ضربته الجريئة جاء دور القوة . اذن فليحملها على اعتناق الاسلام سواءا كان ذلك خيراً أم شراً وسواء أتم طوعا أو كرها والغالب أنه كان كرها ، لأن اقناع شعب يتملكه الخوف من آلاف من السنين بنبذ معتقداته دفعة واحدة واعتناق عقيدة جديدة وغريبة عنه بالمرة — لا يمكن أن يكون إلا بفعل القوة . وما يتعذر نيله عادة بالاقناع — ومن الصعب اقناع المصرى — لابد من نيله بالقوة ، فاختار الفاتح العربى الاسلوب الأخير واختاره خلفاؤه من بعده لهداية البلاد الى الدين الجديد .

غير أن العرب استخدموا هذه القوة بمهارة سياسية ظاهرة

وبضبط نفس وعدل شديدين ولم يجعلوها وسيلة للقهـــر الوحشى المصبوغ بالدم، مع أن البلاد كانت تجهل حتى ذلك الحين معنى التسامح الدينى أو السياسى وكما أن الدول التى تسلطت عليها من قبل لم تكن تعرف للتسامح اسماً

ففى عهد الدولة الرومانية مثلا ارتكبت مذابح مريعـة كانت تتكرر من حين الى حين بضراوة لم يذكر لها تاريخ البشرية مثيلا وأعنى بها مذابح شهداء المسيحية الأولين.

وكان البيزنطيون يؤيدون حججهم السياسية واختلافاتهم الدينية بقتل خصومهم بالسم جماعات أو أفرادا.

أما العرب فمما يذكر تشريفاً لهم أنهم لم يذبحوا مسيحيين ولا يهوداً ولم يقتلوا من الناس الا عدداً يسيراً او قل بالحرى إنهم لم يقتلوا إلا الذين كان لا محيص لهم من قتلهم فانهم كانوا بعيدين جداً عن اسطورة «آمن أو مت».

وقد أشرت الى ما كان للفاتحين العرب الأولين من مهارة سياسية وانصاف فمن الأمثلة على ذلك صبغة العهد المسمى «بالعهد العمرى» أو هو الأوامر التى أصدرها الخليفة عمر بن الخطاب لقواده عند سفرهم من الجزيرة العربية وأوصاهم فيها بأن يبسطوا سلطة الاسلام السياسية قبل أن ينشروا الدين الاسلامى فيعرضوا

على غير المؤمن :

(١) إما قبول الدين الجديد مختاراً وفى مقابل ذلك يعفى من دفع الجزية ما عدا ضريبة الدم (الخدمة العسكرية)

(٢) أو قبول السيادة السياسية وفى هذه الحالة يؤدى الجزية

(٣) أو القتال فاذا غلب على أمره فرضت عليه الطاعة والجزية .

فاذا قوبلت مهارة العرب السياسية هذه وما كان لهم من شعور العدالة والرأفة الانسانية – بالوسائل الهمجية التى لا يزال الغربيون يعاملون بها البلدان التى يفتحونها ظهرت لنا السيادة العربية مترفعة لينة الجانب ولا يسعنا حينئذ سوي الأعجاب بالانصاف والسمو اللذين فرض بهما الفاتحون الأولون من العرب والمسلمون ارادتهم وحضارتهم على الشعوب التى خضعت لهم منذ اكثر من ألف سنة .

ومما يذكر عن الخليفة عمر بن الخطاب أنه كان شديد الحرص على حسن سير العدالة فلما رأى عمرو بن العاص أن يبيح لنفسه جمع ثروة شخصية كبيرة – بعد ما أدار شؤون البلاد عدة سنوات إدارة باهرة – لم يتردد الخليفة فى مصادرة ممتلكاته وتوزيعها على الفقراء .

ولقد كانت الضرائب التى تجبى من مصر فى ذلك العهد تنفق كلها تقريبا فى مصر نفسها على مخصصات الجيش ورواتب الموظفين والأعمال الدينية الخيرية والهبات التى تجرى على العلماء من جميع الأديان وعلى معاهد العلم الأولى وأعمال البناء والأشغال ذات المنفعة العامة .

ولا شك فى أن هذه الحرية التى جاء بها الاسلام عقب ظلم بيزنطة كانت أكبر سبب لانتشار الفتوحات العربية انتشاراً سريعاً وكانت أول مظهر جدي لعودة مبدأ قديم الى الوجود بعد ما عفا عليه النسيان وأعنى به المبدأ الديموقراطى لجمهورية بيركليس اليونانية فقد عاد هذا المبدأ بصورة جديدة هى صورة الاشتراكية العربية الاسلامية التى تخيل الغربيون بعد ذلك بأجيال أنهم روادها الأسبقون .

وبعد ما كان المصريون يعتنقون الاسلام جماعات ولا سيما للفائدة التى تعود عليهم من اعفائهم من الجزية أصبح اعتناقهم له مجرد عادة وربما اتخذوه ذريعة لنيل مقاصدهم .

ولا ننكر أن العرب بذلوا مجهودات فى سبيل صبغ مصر بالصبغة العربية ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ولا من ادخالها فى حظيرة الاسلام بجملتها إلا ببطء وبعد زمن متأخر كثيراً .

وذلك لأنه ظهر عامل نفسى ذو شأن هو خلق المصرى وما عرف به من تلكؤ غريب فى التحول عن عاداته التى ألفها ومن نفور فى توجيهها وجهة أخرى . فانه بعد ما أسلم بقى متمسكا بخليط عجيب من الخرافات الموروثة والأساطير الراسخة فى عقيدته . ومما لا ريب فيه أن ألوفا من السنين عاشها فى الوثنية والسحر والحنين إلى الأسرار الفرعونية وعبادة الحيوانات الغامضة المظلمة — تركت أثرها فيه .

ولقد قيل أن الكائن المجهول الأعظم ثار لنفسه من المنطق وأن الفراعنة وكبار كهانهم انتقموا لأنفسهم كذلك انتقاما خفياً فألقوا بقية من الوثنية واضطرابا فى ضمائر أحفادهم الذين أسلموا !

ونظراً لأن فى الاعفاء من الجزية غنما بدأ اعتناق الاسلام يصبح اختياريا شيئاً فشيئاً . وعلى مدى الزمن صار ضاراً ضرراً بالغا بالعرب ، ففى عهد خلفاء بنى أمية كثر عدد المعتنقين للاسلام كثرة جعلت الخلفاء يكفون عن تشجيع ذلك بل إنهم أخذوا ينظرون إلى هذا الأمر بعين الاستنكار والريبة بسبب الخسارة التى حلت بمالية الدولة من جرائه .

والواقع أن حصيلة الضرائب فى مصر فى خلافة معاوية هبطت

إلى نصف ما كانت عليه قبل ذلك ببضع سنوات أى فى خلافة عثمان ، ولم يكن هذا النقص ليعزى إلا الى إسلام القبط الذى حدث فى غضون ذلك . وأكثر من هذا ان بعضاً من الخلفاء رغبة منهم فى إقامة العراقيل فى سبيل طلاب اعتناق الاسلام عدلوا عن منح الذين يعتنقونه منهم حق الاعفاء من أداء الجزية .

غير أن الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز وكان أنزه خلفاء بنى أمية غاية كان يرى عكس ذلك فلما كتب إليه عامله حيان يقول : « اذا دام الحال على هذا المنوال فى مصر أصبح المسيحيون جميعا بلا استثناء مسلمين فتخسر الدولة الدخل الذى يرد الى الخزينة » غضب الخليفة من هذه الملاحظة وأنفذ اليه رسولا خاصا وزوده بالأمر التالى : « عليك أن تضرب حيانا ثلاثين جلدة عقابا له على الألفاظ التى كتبها وأن تقول له أن يعفى من الجزية كل رجل يسلم فان الله انما بعث بنبيه رسولا لا جابيا للضرائب » .

وعلى كل حال فان المصريين تنفسوا الصعداء لما جاءتهم السيادة العربية وقابلوها بارتياح نظراً لما جلبته لهم من أمن لم يكن لهم عهد به قط وبسبب النظام الذى بسط العرب رواقه على بلاد كانت تسودها الفوضى المطلقة ولم يخطر لأحد فيها أن يحافظ على النظام بعد عهد الملوك اليونانيين الاصوليين الذين خلفوا

الاسكندر فى حكم مصر .

والواقع إن الادارة العربية ظلت زمانا طويلا مصدراً للخير واليسر المادى للبلاد . واذا كان الرومانيون فى القرون التى قضوها فى مصر وسادها فيها الرعب والكرب الأدبى والاستغلال قد جعلوا منها مستودعا للمؤونة من دون أن يجنى سكانها من ذلك أقل ربح . ثم اذا كان البيزنطيون بدورهم قد اتخذوها ليمانا أو نوعا من سجون الاصلاحيات السياسية والدينية — فان العرب أحالوها (مصنعا) ومصنعاً وافر الانتاج ، فقد نهضت الصناعة فيها ونهضت التجارة التى اهملت من زمان طويل نهضة حديثة وصارت مصر تصدر غلاتها ومحصولاتها الى جميع بلدان الشرق الأدنى والى سائر العالم المتحضر فى ذلك الحين وتجنى المكاسب الوفيرة من وراء ذلك .

ويؤخذ مما قاله المؤرخون عن حوادث ذلك العصر أن مصر جنحت الى الهدوء والسكينة وأنها شرعت تزيل فى ظلال السلام واليسر والتسامح الدينى أثر النوائب التى حاقت بها من كل نوع فى خلال القرون الماضية .

ومما لا ينازع فيه أحد أن المصريين كانوا من أقدم العصور تجاراً بارعين ، ولكنى لا أروى عجبا اذا قلت أن العرب كانوا

محيطين علما بأعمال البنوك الى درجة مدهشة . وها هــو التاريخ يقيم البرهان على ذلك .

فان مكة من العصور السحيقة لم تكن فقط مهدا للحفلات الدينية فى الجاهلية والاسلام ، بل كانت كذلك مركزا هاما للتجارة وعقــد الصفقات المالية وحيث أنها واقعة على طريق التجارة فى العالم القديم فكانت تجمع الثروة وتقتبس الثقافة من البلاد المجاورة لهـا ، وبذلك صار العرب بفضــل موقع بلادهم المصدرين للسلع الى العالم أجمع ، وكانت القوافل تسافر من مكة حاملة لبزنطة وايران نفائس منتجات الهند واليمن بل والحبشة .

وكان العرب ولاسيما المكيون من بنى قريش من أبرع المضاربين قبل الاسلام وبعده ، فكان لهم قبل الاسلام نظــام مصرفى من أتقن الأنظمة ، وكان كبار الماليين والتجار من أهل مكة مثل بنى أمية والعاصى بن هشام وبنى مخــزوم وغيرهم يضاربون فى سعر القطع وفى سعر العملة وفى القراطيس الاجنبية بل كان منهم حزب صعود وحزب نزول فى المضاربة بالسلع الاجنبية ، وكانوا يحتكرون الحبوب ويبيعون السلع بالكنتراتات .

ولم يكونوا يجهلون المعاهدات وورق النقد والسلفيات على رهون والتسليف بفائدة ٨٠ ./. ولا كان كل ذلك غريبا عنهم .

نعم ان الاسلام حرم الربا والربح الفاحش تحريما قاطعا كما أن الشريعة الاسلامية نهت عن جميع أنواع المضاربات ، غير انه من المسلم به كذلك ان هؤلاء العرب الجاهليين أنفسهم لم يفقدوا بعد اسلامهم غريزتهم الأصلية ولم يستطيعوا الجامها أو كبحها وأعنى بها غريزة حب المال والميل الى الربح وجنى المكاسب مما يحسدهم عليه أميركيو اليوم بل بقيت فيهم هذه الغريزة فى أوجها وانطلاقها من كل قيد .

ولم يكن العرب الفاتحون سواء أكانوا أمويين أم عباسيين أم فاطميين إلا سلالة هؤلاء القرشيين بعينهم مضاربى الأمس وأكبر المشتغلين بالاعمال المالية والتجارية فى الشرق .

وبعد ما أسلم العرب نقلوا معهم الى البلدان التى فتحوها عبقريتهم المالية المدهشة وكانت النواهى الدينية قد ضيقت ونظمت وأصلحت وعدلت فشجعت التجارة وبثت فى اصدار المصنوعات نشاطاً عظيما وسريعاً .

وبعد ما كانت مصر فقيرة عادت غنية ولم يعد المال يخرج منها بل كان يرد إليها كالسيل المندفق فهى مدينة للعرب بالشىء الكثير بل أقول ان العالم مدين لهم كذلك لأنهم أنقذوا الحضارة القديمة من الخراب بلا مراء .

أما من جهة الثقافة فان عهد العرب فى مصر كان عهد نهضة وكأنما حدثا غريباً أعاد الأمور الى مواضعها فردت الى مصر مبتدعاتها وعلومها بعد ما ضلت طريقها فى منعطفات بعيدة .

وان ننس لا ننسى أن المصريين القدماء هم الذين لقنوا اليونانيين فن التعبير عن الفكر البشرى وإظهاره وكان فيثاغورس قد جاب العالم القديم وذهب الى أسيا الصغرى وبابليون قبل أن يلقن اليونان علمه فحمل من منف نظرياته الرياضية الأولى وفى طيبة ذات المئة باب وجد عقله أجنحة طار بها فى عالم النور .

بل ان اليونانيين بنوا روح الفلسفة على أساس مصرى ولم تكن دلفس مزاحمة لطيبة بل كانت تلميذة لها . وما تلقنه اليونانيون من المصريين تعلمه العرب بدورهم من اليونانيين بعد ما ذبلت حضارة هؤلاء وذهبت ريحهم ثم أصبحوا (أى العرب) بدورهم بعد ذلك مخترعى العلوم العقلية واساتذتها .

فهؤلاء العرب الذين اتهموا بلا حق بحرق مكتبة الاسكندرية وتضحية المؤلفات والتحف القديمة على مذبح تعصبهم الدينى هم وحدهم الذين اقتبسوا بصبر ومثابرة علوم اليونانيين القدماء ذرة ذرة وجزءا جزءا ونقلوا الى العالم والبشرية والى مصر المنهوكة الضعيفة ثمرات فكرها المبدع وعلمها الباهر

بعد ما غيروا شكله ونظموه وأنقذوه من براثن الفناء وأخرجوه من زاوية النسيان فلما جاء القرن العاشر حتى انتشر شعاع الحضارة العربية وامتد الى اوربا فأفادت منه .

وكان الطلبة يأتون من انحاء أوربا الواقعة فى ظلام الجهل فى العصور الوسطى ليتلقوا العلم فى قرطبة واشبيلية وطليطلة وكانت مواطن الثقافة العالية والفكر العميق غير منازعة، فان هذا التقدم العقلى فى الغرب بدأ فى جنوب اوربا ولا سيما فى ايطاليا منذ القرن الحادي عشر وانبثق النور من قرطبة وصقلية وكانتا موطنين للعلم ترسلان نورهما منذ القرن الثامن الى شواطىء البحر المتوسط حتى نابولى والبندقية .

وكانت اسبانيا كلها تقريبا خاضعة للسيادة العربية وكانت جزيرتا ماجوركا ومينوركا الكبيرتان عربيتين وكانت كورسيكا ومالطة وصقلية وأجزاء من الساحل الايطالى وتارنتو وبرنديزى فى أيدى العرب ، ثم أن حوض البحر المتوسط الذى كان فى ما مضى موطناً للحضارة اليونانية أصبح ميدانا لنشاط الحضارة العربية .

وكان النفوذ العربى مبسوطا فى صقلية بنوع خاص وكانت فيها حضارة مزدهرة ازدهار الحضارة فى قرطبة وبغداد

والقاهرة، والعرب هم الذين أنشأوا الارستوقراطية الذهنية والصناعية أينما حلوا .

وكانت معارف العرب فى الكيمياء الصناعية واسعة وإليهم يرجع فن الصباغة و استنباط المعادن وصنع الجاود والفولاذ والورق لأن أوربا كانت حتى القرن الحادى عشر تجهل هذه الصناعات .

وقد اعترف بهذه الحقيقة مونتكلا العالم الرياضى الفرنسى الشهير إذ قال :

« كان العرب هم المؤتمنون وحدهم على العالم أجيالا طوالا ونحن مدينون لتجارتهم بأشعة النور الأولى التى اكتسحت ظلمات القرن الحادى عشر ، ففى تلك الحقبة كان جميع الذين نالوا أبعد شهرة فى الرياضيات قد تلقوا علومهم بين العرب » .

وقال لنا ديلامبر فى كتابه (تاريخ الفلك) :

« ان العرب عملوا من الأرصاد الفلكية أكثر مما عمل اليونانيون فقد كانت عندهم آلات حسنة للرصد . وكانوا يستعملون حساب المثلثات عندهم فى المسائل الخاصة بالأجرام السماوية ويلوح أنهم هم المؤلفون الأولون بعدة أساليب لتقسيم رقعة السماء وهم الذين وضعوا شكلا هندسياً منتظما لمذهب الأتجاهات

والاشعاعات إن لم يكونوا هم المخترعين لهذا المذهب ».

وفى سنة ١٠٠٨ كان واحد من هؤلاء العرب المدهشين أول من استعمل الرقاص لقياس الوقت فعده الناس معتوهاً فى أول الأمر ولكنهم فهموه بعد ذلك.

وفى عهد الخليفة العباسى المأمون عرف مقاس الكرة الأرضية. والمفروض أن هذا يدل على ان العرب كانوا يعرفون شكلها معرفة صحيحة، ومن جهة أخرى كانت « الكرات الأرضية » المدرسية منتشرة فى جميع المدارس العربية فى اسبانيا فى الوقت الذى كانت فيه بيزنطة وروما تعلمان أن الارض مستوية السطح!

ولعلى أكون جادة بعض الجد إذا قلت أن العرب هم الذين اكتشفوا كروية الأرض.

وفى الرياضيات كان علماء العرب ملمين بمؤلفات اليونانيين غير أنهم أضافوا الى أعمال ايولونيوس واقليدس وبحوثهما شيئاً جديداً لم يسبقهم اليه أحد وهو الجبر أولا ثم حساب المثلثات وقد هذبوا هذا الأخير بسبب اشتغالهم بعلوم الفلك، وكانت العلوم الفلكية أحب اسم الى علماء العرب.

أما فى الهندسة والحساب والعلوم البصرية والآلية فقد تقدم

العرب تقدما باهراً وعندما خرجت صقلية من حوزتهم بعد ذلك بقيت فى حاجة الى الاستعانة بعلماء العرب ، فان الأدريسى العالم الشهير فى تقويم البلدان دعى الى بلاط روجير ملك صقلية وصنع له خارطة للعالم وكرة أرضية من الفضة ، وظلوا فى أوربا يستعينون بمؤلفاته ومعها ٦٩ خارطة بعد ما ترجمت الى اللاتينية لتعليم تقويم البلدان أكثر من ثلاثة قرون .

وذكر ابو الفداء اسماء ٦٠ عالما معروفا من علماء تقويم البلدان فى سنة ١٣٣١ .

وكان للعرب باع طولى فى الطب والجراحة فانشأوا فى كثير من البلدان ولا سيما فى اسبانيا مستشفيات تمكن الاطباء فيها بنتائج تجاريبهم وبتشريح الجثث من وضع بحوث متينة علميا ومفيدة وحلت اختباراتهم العلمية محل « طب الركة » الذى كان فاشيا فشواً خطراً فى أوربا حيث كان تشريح الجثث وفحصها أمرا محظوراً كل الحظر .

ومارس العرب الطب ممارسة ساعدتهم على الوصول الى اكتشافات فيه وفى الجراحة أهم مما اكتشف من نوعها منذ جالينوس .

وفى القرن الحادى عشر عمل « أبو القاسم خلف » عمليات

جراحية لم يجحدها جراحو هذا العصر .

وطاف العالم النباتى ابن البيطار فى جميع أنحاء الشرق باحثا عن أعشاب طبية وترك لنا عنها بحوثا عظيمة ، وخلف لنا ابن زهر ذكري مهارته المدهشة كطبيب وفيلسوف .

وكان ابن رشد الفيلسوف صلة الاتصال بين المدرسة اليونانية القديمة ومدارس العصور الحديثة ، ولو أن جامعة باريس شجبت فلسفته فى تأليه الكون ومؤلفاته كما شجبها الكرسى البابوى فى سنه ١١٩٨ .

وفى القرن التاسع كان الكندى أول عالم امتاز بتعمقه فى درس مؤلفات ارسطاطاليس .

وفى القرن العاشر جاء الفارابى وواصل عمل الكندى ، وبعد ذلك بثلاثين سنة جاء الرئيس ابن سينا وأضاف الى ذلك مذكرة شخصية لم يسبقه إليها أحد عن التصوف كان متأثرا فيها بدراسات بوذية ، ومع ذلك فان ابن سينا كان نابغة كشاعر وطبيب ورياضى وفيلسوف وسياسى .

وفى ختام القرن الحادى عشر برز الغزالى بفلسفة استلهمها برمتها من افلاطون ، وأخيراً فى القرن الثانى عشر ظهر أجل فيلسوف قدراً بين الفلاسفة العرب والمسلمين وهو : أبو بكر

بن عبد الملك بن طفيل القيسى من قبيلة قيس أشهر قبائل العرب وكان يعرف كذلك بالاشيلى والأندلسى .

ثم جاء ابن خلدون — وهو الذى ما برح الناس يبحثون عن أصله — فأدهش العالم بمعارفه .

وبينما كانوا فى بغداد فى ملك هارون الرشيد الخليفة العباسى وملك إبنه المأمون يترجمون المخطوطات اليونانية ويتباحثون فى فلسفة سقراط وافلاطون وفيثاغورس واقليدس واكسينوفون وارسطاطاليس . كانت الحضارة البشرية آخذة فى كسب عناصر جديدة من اتصالها بالهند والصين ، وفى ذلك الحين أهدى هارون الرشيد أول ساعة دقاقة الى أعجمى نابغة هو شارلمان وكانت تدق الساعات فى قصره .

وبعد ذلك أخذت الحضارة العربية Formera Sanuit (لأنى لم أجد كلمة أخرى أعبر بها عن الانقلاب الذى حدث فى أوربا وبشائر النور التى أخذت تبدد الظلمات) فاستعملت تعبير فونك برونتنو الذى وصف به الهمجية التى كانت تغمر أوربا فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر الى الحرب الصليبية الأولى حينما اتصل أعاجم الغرب بالشرقيين ورثة الحضارات العظمى فآتى هذا الاتصال ثمارا لم تكن فى الحسبان .

وكان أول ما نقله الصليبيون لشعوب أوربا عن الشرقيين عناصر أنظمتهم الاجتماعية فى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، فبدت لأول وهلة فى فرنسا وانجلترا ابتداء من منتصف القرن الثالث عشر تبدلات هامة لا يوجد لظهورها ما يعلله لو لم يكن الصليبيون قد شاهدوا مثلها فى دمشق ومصر ومن أمثلتها هيآت اصحاب الحرف وطوائف الصناع .

فقد كانت توجد فى وقت الحروب الصليبية فى دمشق والقاهرة وفى جميع المدن الاسلامية الكبرى نظامات للحرف خاضعة لسلطة بوليس البلدية أو « الحسبة » وكان رئيس هذا البوليس هو المكلف الاشراف على هذه الطوائف . فانشأت كل من فرنسا وانجلترا نظام أعضاء البلديات على مثال ما رؤى فى مصر وفى سوريا العربية .

ولا يخفى أن لويس التاسع ملك فرنسا (القديس لويس) الذى اشتهر بالذكاء والعلم وكان من أفضل ملوك المسيحيين — هزم فى مصر ثم استرد حريته ونال إذنا بالأقامة فى فلسطين سنتين (من سنة ١٢٥٠—١٢٥٢) ، فهذا الملك كان يغتنم أوقات فراغه بعد ساعات الصلاة لجمع المعلومات عن النظم السياسية والاجتماعية فى العالم الاسلامى فاستقى من المصادر الشرقية بقدر ما سمحت له به

عقيدته المسيحية وجوه الاصلاح ونقلها الى أوربا بعد عودته اليها وهي التي خلعت رداء المجد على حكمه الذى دام ١٧ سنة .

وقد أنبأنا بهذه الأنظمة البـاريسية « انيان بوالو » فى مؤلف نفيس بعنوان « كتاب الحرف » ألفه فى عهد القـديس لويس بعناية حاكم باريس ومساعدته . فمنذ منتصف القرن الثانى عشر كان « جان دى جرلاند » يهتم بأمر الصناعة فى باريس واليه يرجـع الفضل فى وضع قائمة بأسماء التجار وأصحاب المصـانع ولكن هيآت أرباب الحرف لم تكن قد وجدت بعد بل إنهـا تألفت بتمامها وشكلت واستقرت بأمر القديس لويس ومن الغريب أنهم قلدوا فيها « هيآت الحرف الاسلامية Sarrasins » (١)

ولـكى تـكون لنا فكرة جلية عن مدى تأثير النفوذ العـــربى فى أوربا أقول استناداً الى أخبار الوقائع الـكنسية اذا صحت إن العادات الشرقية تغلغلت فى مدينة تولوز العظيمة . ويؤخذ من قصة كونت تولوز أنه أثار شكوك « الاساقفـة Saincts Moynes » فيه لأنه (اغتسل) أو بعبارة أخرى لأنه جاب معه من الأراضى المقدسة عادة من عادات المسلمين أو الشرقيين .

---

(١) كان الصليبيون يسمون العرب والمسلمين Sarrasins وهى محـرفة عن كـلمة (شرقيين) العربية

ولكن هناك حقيقة أخرى لا يصح انكارها وهى أنه كانت توجد فى طليطلة هيئة عاملة نشيطة من المترجمين يرعاها المطران ريموند لكى تترجم الى اللاتينية أهم مؤلفات العرب العلمية وبقيت هذه الهيئة ناهضة بمهمتها ثلاثين سنة « من سنة ١١٣٠ — ١١٦٠ »

ولم يمنع وجود هذه الهيئة الكردينال اكسيمنيس فى القرن الخامس عشر من ارتكاب مذبحة المغاربة واتلاف جميع المؤلفات العلمية العربية بحجة أنها رجس من عمل الشيطان.

ربما يقال لنا ان الصليبيين لم يذهبوا الى الشرق ليقتبسوا شيئا من المدنية العربية وانه لم يكن لهم متسع من الوقت للتعلم وقد يعترضون كذلك بأنهم لم يكونوا يأبهون لعلوم العرب لأنهم كانوا يرتابون فى كل ما يأتى من مصدر اسلامى.

ولكن على فرض احتمال ذلك لا يمكن أن يقال ان الأمراء الذين ساحوا فى اسبانيا وفى سورية لم يروا شيئا ولم يتعلموا شيئاً مما كان يجرى على مرأى منهم لا فى سنتين ولا فى عشرين سنة بل فى مئتى سنة.

ولا ريب فى أن الحرب لم تكن متواصلة يومياً بل كانت هناك فترات طويلة من المهادنة.

وليس فى هذا الرأى تمليق لذكاء أمراء الغرب وفيهم أكثر من واحد كانوا على أعظم جانب من الذكاء والواقع إن الامراء المسيحيين ولا سيما أمراء أودسا وانطاكيه عقدوا أواصر التحالف مع أمراء سورية وعلمائها، وبعض آخرون منهم لما عادوا الى أوربا تنبهت عقولهم وانفتحت عيونهم كثيراً وصار مواطنوهم ينظرون إليهم بعين الفضول، فهؤلاء الأشراف اعترفوا بعجائب الشرق فكان جزاؤهم ان حرق بعض منهم أو حرق أبناؤهم من بعدهم بتهمة الهرطقة أو السحر لأنهم جلبوا الى أوربا علوما لا يعرفها الرهبان ولأنهم أدركوا اموراً جديدة وتأثروا بها فدفعوا الثمن غاليا.

غير أن بذور الأفكار الراقية المقتبسة من الشرق أثمرت ثمراً مؤكداً وان يكن اثمارها تم ببطء وأخيراً انتصرت تلك الأفكار وتكونت منها المدنية الأوربية العصرية التى يقتتلون من أجلها اليوم على ما يلوح.

وقد كتب المؤرخ الشهير ميشليه يقول:

«ان تجار لنجدوك (١) ذهبوا الى اسيا والصليب فوق أكتافهم لا لزيارة القبر المقدس فى أورشليم بل لارتياد أسواق

---

(١) ولاية من ولايات فرنسا القديمة

عكاء لأن الروح التجارى تغلب على الكراهية الدينية حتى أن اسقفى ماكلون ومونبليه كانا يسكان النقود الأسلامية ويربحان المال ولا يترددان فى أخذ الفائدة من النقـــود المطبوعة بشارة الهـــلال »

وروى المؤرخ ابو وصيف ان كثيراً من الصليبيـــين كانوا يتكلمون العربية وأن أميراً فرنسيا يدعى برنارد دى كستيللو من المحاربين فى فلسطين وسورية كان يعرف العربية ويلم بآدابها وجميع ملوك جزيرتى صقلية من روجير الثانى وغيليـــوم الى فريدريك كانوا يتكلمون العربية ويستفيدون بما كان للمسلمين الباقين فيهما من معارف وعقول عملية .

ثم ان السيد دى جوانفيل الشهير ترك لنا وقائع مفيدة جداً فى كتابه : « Palarbrait Langue Sarrasine »

واذا كان كثير من الصليبيين اهتموا بالبحث عن المخلفات الأثرية المسيحية اكثر من اهتمامهم بالبحث عن الكتب العلمية فان آخرين منهم لما دخلوا هذه البلاد الاسلامـــية بهتوا رغم انوفهم مما رأوه من سمو حضارتها .

فريتشارد (قلب الاسد) ملك انجلترا الباسل الخفيف الظل لما رأى تفوق الشرق تفوقا عقلياً لا نزاع فيـه أحس بوجوب

إزالة حجاب الجهل الذى كانت بلاده ملتحفة به وأدخل هو أيضا اصلاحات نافعة فى المملكة الانجليزية بعد عودته اليها .

ولكى يكون المرء منصفاً بقدر الامكان يجب أن يكون رأيه صحيحاً عن « المدنية العربية » فليس من الحق تماما وصفها بأنها « مدنية اسلامية » بل ان العبقرية العربية هى التى ساعدت اجيالا من الرجال الممتازين على أن يملأوا حقبة من التاريخ سناء وبهاء وحملوا فى خلال هذه الحقبة مشعل المدنية غير منازعين .

والواقع اننا لا نستطيع ان نضع الترك مثلا — وقد جاءوا فى ما بعد — فى مرتبة العرب فانهم وان كانوا مسلمين وفاتحين أيضا لم يوهبوا عبقرية العرب بحال ما .

ولنعد الى مصر بعد ما تكلمنا عما يدين به العالم للعرب ، فنقول ان مصر دبت فيها القوة كذلك ونجت من عوامل الفناء وبدا على سيمائها مظهر الدولة ، ولكن عصر الرخاء واليسر فيها لم يدم طويلا بعد ما بدأ بداية باهرة على أثر الفتح ، وفى خلال الحقبة الأولى من تاريخ السيادة العربية وما جلبته للبلاد من رفاهية وسلام .

فقد تلاحقت القلاقل يأخذ بعضها برقاب بعض بسبب الانقسامات الدينية والتبدل المستمر فى الأسر المالكة على الاسلام

اذ كان العرب يتشاحنون مشاحنات شديدة العنف فى ما بينهم وكان لابد من أن تعود عليهم بالوبال حتى انطقت تلك المنازعات المستمرة الغزالى الفيلسوف العظيم بعبارته هذه الأسيفة « لو تحاب الناس وعرفوا مزايا الود والرحمة لما احتاجوا الى محاكم للقضاء ».

وما كانت تلك الحروب الداخلية فى جملتها سوى منازعات بين الأسر المالكة على الحكم ومنافسات شخصية زادتها تعقيداً غايات سياسية متناقضة ولم يكن ثمة محيص من أن يكون فعلها ذريعا بالبلاد . وهكذا انتقلت مصر تباعا من حكم الى حكم بين جميع أبناء العم الأقربين من أسرة العرب وأعنى بهم الأمويين والعباسيين والطولونيين (١) والفاطميين .

وليسمح لى أن اقف هنا هنيهة لمناسبة ذكر الفاطميين واذا كنت قد أشرت بعبارات مقتضبة جدا الى ما يدين به العالم للعرب فانى أضيف الى ذلك ان مصر مدينة بنوع خاص لهؤلاء الفاطميين .

أجل أننا مدينون لهم بالمؤرخين والرياضيين والفلاسفة والاطباء والنحويين والعلماء المشهورين فى تقويم البلدان .

بل اننا مدينون لهم بالمهندسين المعمارين المبدعين وبالفنانين

---

(١) كان الطولونيون من أصل تركى

البارعين وبالصناع المهرة وبالنقاشين المهذبين ذوى الذوق السليم .

كذلك نحن مدينون لهم بفخامة لا نظير لها وبأبهة الملك التى لا تمحى من تاريخ شرقنا هذا العجيب .

وأخيراً نحن مدينون للفاطميين بتأسيس عاصمتنا الحاضرة : القاهرة

الحديث التاريخي الثاني

الفاطميون

« عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية — المعز »
« لدين الله الخليفة الفاطمي — جوهر »
« الصقلي فاتح مصر — تأسيس مدينة »
« القاهرة — تأسيس مذهب الدروز — »
« ست الملك الوصية على عرش مصر — »
« عساكر التركمان »

لست أروى شيئاً جديداً ولا مجهولا فى الواقع عندما أقول إن دولة الفاطميين أسسها فى القيروان — فى سنة ٢٩٧ هجرية الموافقة لسنة ٩١٠ ميلادية — شخص يدعى عبيد الله ويكنى « بالمهدى » زعم أنه من سلالة على وفاطمة بنت النبى . ولكن قل من يعرف كيف قضى عبيد الله — ونسبه هذا غير محقق بالمرة — حياة حافلة بالآلام والمخاطرات فى بلاد العرب وسوريا ثم كيف لجأ بعد ذلك الى أفريقيا الشمالية ونادى بنفسه خليفة وأميراً للمؤمنين ، وعندى أنه اذا لم يكن هو الذى أنشأ

مذهب الشيعة فهو على الأقل مسؤول عن سرعة انتشار هـذا المذهب وامتداده وماسببه من مشاحنات دينية وحروب وحوادث سوء التفاهم فى العالم الاسلامى .

ومما يستوقف النظر ان هذا الرجل الغريب — فى خلال ربع قرن — بنى مدنا وسن قوانين وأخضع شعوبا وقاد جيوشاً وفتح بلدانا وبسط سيادته على القيروان وفاس حتى صقليه (فى ايطاليا) .

ثم مات عبيد الله مؤسس امبراطورية الفاطميين فى ١٤ ربيع اول سنة ٣٢٢ هـ (٤ مارس سنة ٩٣٤ م) . فخلفه ابنه أبو القاسم ولقب نفسه بلقب « القائم بأمر الله » وجعل من أهم أغراضه فى حياته أن يضم مصر الى امبراطوريته .

ولكن الحظ لم يسعد القائم بأمر الله فى ملكه وذهبت حملاته العسكرية عبثا . ولما أنفذ قوات كبيرة فى حملته الثالثة لغزو مصر بقيادة معتوقه زيدان باءت محاولات هذا القائد بفشل محزن لأن الامير الأخشيدى دافع عنها دفاعا مجيداً .

وفى سنة ٩٤٣م أعد حملة رابعة غير ان اندلاع نار الثورة فى المغرب ونشوب حرب أهلية فى البلدان الخاضعة له حالا دون مضيه فى مشروعاته التى أعدها للفتح ومات فى « سوس » مقر

ملكه فى ١٣ شوال سنة ٣٣٤ هـ (١٨ مايو سنة ٩٤٦ م)
وخلفه ابنه أبو طاهر اسماعيل ولقب نفسه بلقب «المنصور»
وواصل الحروب التى شنها الفاطميون على الأمويين فى الأندلس
فكان عهد ملكه مشوبا بحروب أهلية آخذ بعضها برقاب بعض
ومات فى ٢٨ شوال سنة ٣٤١ هـ (١٨ مارس سنة ٩٥٣ م)
وكان موته بعلة صدرية على ما يظهر تاركا بعده امبراطورية
تشتعل فيها نار ثورة مستعرة لابنه «أبى تميم» المشهور بلقب «المعز
لدين الله» وهو الخليفة الفاطمى الذى فتحت مصر فى عهده.

وكان المعز فى الثانية والعشرين من عمره يوم ولى الخلافة
وقد وهبته الطبيعة جميع أسباب الجمال ومنحته كل السجايا الحسنة
والذكاء المتوقد والعقل الحصيف، ولكن ماذا عساه أن يصنع
هذا الشاب فى أحوال سادتها الاضطرابات من مستهل عهد خلافته
وجعلت موقفه شاقا كملك لامبراطورية عظيمة ثائرة.

واتفق ان عبد الرحمن الخليفة الاموى فى قرطبة كان يعد
حملة عسكرية ويجهز أسطوله ليهجم به على «سوس» ويستأنف
حربه للفاطميين، ولكن ما كان أشد ارتياح المعز ارتياحا لم
يكن منتظراً ولا مأمولا حينما رأى ان خصمه يقف وجها لوجه
فى الوقت نفسه امام قوات مسيحية تحاربه، وبذلك عدل الخليفة

الأندلسى ولو مؤقتا على الأقل عن تنفيذ نيته فى محاربة المعز .

غير انه بقى على المعز بعد ما زال هذا الخطر ان يعانى مشاغل خطيرة وهى الحروب الأهلية الناشبة فى ارجاء امبراطوريته فوقف عليها اهتمامه وبجأشه الرابط ومهارته البالغة اخمد الشغب واطفأ مواضع انبعاث اللهب واندلاع نار الحريق فى جميع البلدان الخاضعة له .

وفى سنة ٣٤٧ ﻫ أوفد جوهر الصقلى معتوقه فاحتل جميع المغرب حتى الاقيانوس الاتلنتيكى ما خلا طنجه وسبته كما ان جوهراً نشر السلام فى الغرب بكل همة وربما بشىء من الغلظة ولكن النظام عاد الى نصابه على كل حال .

وبعد ما أصبح المعز حراً فى امبراطوريته حن الى تحقيق الحلم المحبوب لأسلافه عما جعلته اسرته بأجمعها هدفها الأكبر ونعنى به فتح مصر . واذا كان أسلافه قد ترددوا فى هذا الفتح فقد كان عنده أمرا مقرراً ولكنه عرف فى الوقت نفسه انه عمل يحتاج الى درس دقيق ومشروع لا بد فيه من الروية وحسن التدبير

على أن الظروف واتته وصادفت مرامه لأن الامور كانت قد تبدلت فى مصر فتوفى الأخشيد بعد ما حاول تأسيس أسرة حاكمة ودافع عن البلاد دفاعا ابلى فيه بلاء حسنا ورد عنها

محاولات الغزو التى حاولها الحكام الفاطميون السابقون وأصبح كافور معتوق الأخشيد وصياً على العرش وصان حقوق هذه الأسرة الأخشيدية بقمع كل ميل فى البلاد الى الانتقاض أو العصيان ثم مات كافور نفسه وعادت مصر فوقعت فريسة لأشد ضروب الفوضى واختلال النظام .

واتفق ان نفراً من المصريين الساخطين لجأوا الى الخليفة المعز وسواء اكانوا قد لجأوا اليه من تلقاء أنفسهم أم انه هو الذى حرضهم على ذلك فان المعز الرجل البصير أصبح يستقى منهم الأخبار الصحيحة عن حالة مصر الداخلية ثم اختار الساعة الملاءمة فأوفد رسله السريين إلى أشخاص من ذوى المكانة فى الفسطاط وفاوضهم فى اخضاع البلاد له واشترى ولاء بعض منهم بالمال وأحدث فى الوقت المناسب ما أحدث من انقسامات بينهم وعرف كيف يذلل الصعاب معالجا الظروف والحوادث برفق مجازفا بلعبة خطيرة مع الصدفة محاذرا مع ذلك من أن يؤخذ على غرة وهذا كله يثبت ان هذا الشاب الذى صادف ظروفاً حافلة بالمخاطر كان على مهارة عظيمة وذكاء خارق ومعارف واسعة بالشؤون النفسية لم يرزق مثلها كثير من رؤساء الدول .

نعم انه كان لا يزال للأخشيديين عدد جم من الأنصار

فى الفسطاط وجيش كبير متأهب لتأييد ادعاءاتهم كان على المعز أن يحسب حسابه ولكنه لم يعبأ بذلك لأنه كان يشعر بأنه لاعب ماهر بل ظهر انه كان كذلك مخاطراً فطناً ، ففى لعبة الشطرنج التى لعبها مع القدر كانت فى يده أعظم ورقة رابحة تهديها العناية دائما الى الذين ترضى عنهم وهى « الحظ » .

غير أنه يحسن بنا أن لا نخطىء فى فهم صفات المعز فقد عزا اليه بعضهم أموراً كثيرة لم يفعلها اللهم إلا إذا كان قد دبرها وأعدها مقدما ، وكل ما فى الأمر انه تحين الوقت الملائم لتنفيذها كما انه اختار الرجال الأكفاء الذين يصلحون لخدمته . وليس هذا بالشىء اليسير .

فهناك كثير من الناس يؤكدون لك مثلا ان المعز فتح مصر وانه أسس مدينة القاهرة وانه أنشأ الأزهر الشريف إلى غير ذلك .

ولكن المعز فى الحقيقة لم يكن فاتحا ولا تصح مقارنته بعمرو بن العاص مثلا ولا بخالد بن الوليد ولا بطارق بن زياد ولا بالظاهر بيبرس الذي لم يكن عربيا ولا بعبد الرحمن فاتح الأندلس ولا بصلاح الدين يوسف الأيوبى وهذا لم يكن كذلك عربيا .

ومع ذلك اذا كان المعز قد نقصته العبقرية العسكرية التى تصطنع الفاتحين و تنجب الجنود العظام فانه كان متحليا بمعرفة واسعة للرجال وللاشياء يضاف اليها حس دبلوماسى مرهف وعلم غزير ومناقب ادارية من الطراز الأول وهى الصفات التى تصطنع عظماء رجال السياسة .

وكان المعز علاوة على ما تقدم كريماً متسامحاً ولكنه ماهر فى حساب العواقب طامح الى أن تكون له فى صفحات التاريخ شهرة فى البراعة السياسية ، والواقع انه ألبس عهده حلة قشيبة من جمال ثقافته وحصافة عقله إذ ساعد على تقدم العلوم والآداب الى حد كبير لأنه كان يحسن تذوق كل ما هو جميل .

غير ان التاريخ كسف شيئا من سناء شهرة المعز كأمير جليل ومشجع عظيم للأدب والفن بشهرة رجل آخر شاءت مخيلة الشعب أن تكلل مفرقه بأكاليل من الاساطير وتعزو اليه المحامد ونعنى به هرون الرشيد الخليفة العباسى مع انه كان رجلا متقلب الاطوار فظاً وهما صفتان لم يعرف بهما المعز .

ولكن لا غرابة فى ذلك فان التاريخ نسب الى المعز صفة الفاتحين وهو لم يكن منهم على الاطلاق ، وفى الوقت نفسه نقول ان التاريخ روى لنا عدة أمثلة لرجال طموحين الى المجد وضعوا

مشروعات ضخمة ولم يتح لهم الحظ أن يجدوا الرجال الذين ينفذون مشروعاتهم. أما المعز فوجد ضالته المنشودة فى جوهر الصقلى هذا الذى شرف بفعاله عهد مليكه.

ذلك ان جوهراً كان من أقدر رجال الحرب فى الاسلام وسيظل اسمه بارزاً يطلق نوراً على مجد المعز فهو من هذا القبيل يشبه بليزريوس[1] الذى اختلط مجده بمجد الامبراطور يوستنيان ومعنى هذا ان المعز صار فاتحا بعمل جوهر، فليس الخليفة المعز - بل هو جوهر الذى سار على رأس ١٠٠ ألف مقاتل وقطع بهم الصحراء الليبية واستولى فى طريقه على برقه فى ١٤ ربيع أول سنة ٣٥٨ ﻫ (٦ فبراير سنة ٩٦٩م) ثم هزم جيش الأخشيد فى سفح اهرام الجيزة فى ١١ شعبان ﻫ (٣٠ يونيو سنة ٩٦٩ م) وبعد ذلك بثلاثة أيام دخل الفسطاط.

وجوهر هو الذى لم يرق له موقع الفسطاط فبنى فى شمالها فى مدى ثلاث سنوات من سنة ٩٦٩ الى سنة ٩٧٢ م مدينة العاصمة لمجد سيده وأطلق عليها اسم «القاهرة».

وهو كذلك الذى بنى الجامع الأزهر فكان ولا يزال الى أيامنا هذه أعظم مركز للثقافة الفقهية فى العالم الاسلامى.

---

(١) قائد جيش الأمبراطور يوستنيان الرومانى (من ٥٠٥ الى ٥٦٥م)

وأخيراً نقول ان جوهراً هـو الذى ابتنى لمليكه قصر الخلفاء الفاطميين فى القاهرة ومع ان هذا القصر لم يبق منه حجر على حجر فان الذين دونوا حوادث عصره وصفوا لنا ما كان فيه من أسباب الفخامة والجلال .

وأود أن أضع أمام القارىء فكرة عن ذلك القصر اقتباسا مما عرف عن عواهل الفاطميين من حب للعظمة والأبهة .

كان القصر فى ذاته مدينة كاملة المرافق تشتمل فى جهة منها على قصر يسمى « قصر الشرق » أو « القصر الشرقى » وقد وصفه مؤرخو ذلك العصر بأنه مبنى عجيب فخم يحتوى على ٤٠٠٠ غرفة وهو رقم أقرب الى الخرافة منه الى الحقيقة .

وفى هذا القصر كان يقيم الخليفة وتقيم معه زوجاته وابناؤه وعبيده واماؤه وفرسانه ، وهؤلاء كانوا يحصون بعدة ألوف .

والى جوار « قصر الشرق » كان يوجد « ايوان » يسمى « ايوان الذهب » كان الخليفة يجلس فيه على عرش من الذهب ويعقد الاجتماعات ويستقبل السفراء الاجانب ، ولا يخفى ان بين هذه الفخفخة وما كان عليه خلفاء الاسلام الأولون من بساطة فرقا عظيما كما ان الديموقراطية الاسلامية كانت قد أصبحت من

ذكريات التاريخ .

وفى جهة أخرى كان يوجد قصر يقال له « قصر الغرب » وهو الدار المخصصة لتنزه أميرات الأسرة الفاطمية وللأعراس وللحفلات الدينية ، وكان هذا القصر يطل على الحدائق التى غرسها كافور الأخشيدى وعلى ميدان لسباق الخيل خاص ببلاط الخليفة .

وكان يتوسط قصرى الشرق والغرب ميدان يدعى « بين القصرين » ويتسع لعرض ١٠٠٠٠ جندى ، وموضع ذلك الميدان هو المكان الذى يشغله الآن « سوق النحاسين » والى الغرب منه كانت توجد دور الصنعة (الترسانات) الخاصة بالخلفاء والأيوان الذى كان يضم مكتبة الفاطميين النفيسة وقد حرقت فى عهد الخليفة المستنصر .

وأخيراً كان يوجد على مقربة من الجامع الأزهر الضريح الخاص الذى بناه المعز وأودعه بقايا أجداده وقد أتى بها من القيروان .

وبعد ثلاث سنوات من فتح مصر على يد جوهر قرر الخليفة المعز أن يزور مملكته الجديدة فوصل الى مصر حوالى شهر ديسمبر سنة ٩٧٢ ودخلها بموكب عظيم دخول الظافرين على رأس

جيشه وحرسه الخاص من المغاربة وحوله أبناؤه الأربعة شاكى السلاح وأمام هذا الموكب عدد من الفيلة ، فأضيئت الفسطاط بالأنوار استعدادا لاستقباله غير أنه تجنبها وعبر النيل الى الروضة على جسر أقامه جوهر لهذه الغاية .

وبلغ المعز مدينة القاهرة فحياه الشعب والجيش وقصد الى القصر الذى أعده له جوهر وأشرنا اليه فى ما تقدم ، وكانت الحفلة الأولى - على ما قال مؤرخو حوادث تلك الأيام - عبارة عن موكب من حملة الهدايا التى قدمت اليه من أعيان البلاد وأنفسها الهدايا التى قدمها جوهر فمر أمام الخليفة ٥٠٠ جواد من أصائل الجياد وعليها سروج مطرزة بخيوط الذهب ومرصعة باللآلىء وخيام من الحرير المطرز بالذهب وبيارق نزلت فى أعوادها حجارة كريمة .

وظل سكان القاهرة والفسطاط يقيمون معالم الأفراح ترحيبا بملكهم الجديد أربعين نهارا بلياليها وفى خلالها تبرع الخليفة بعطايا كريمة وصدقات وزعت على الفقراء والمحتاجين .

وفى مقدمة ما اهتم به الخليفة المعز بعد وصوله الى البلاد أنه أباح تجديد بناء الكنائس القبطية بل قيل « انه شهد بنفسه وضع الحجر الأول فى أساس كنيسة المعلقة فى مصر القديمة » .

وكان الفاتحون الأولون من العرب والحكام فى الدول السابقة أنشأوا فى البلاد نظام البوليس البلدى « الحسبة » فأضاف اليه المعز وظائف وواجبات جديدة ومنها وظيفة الخفارة أو الحراسة وعلى قائدها أن يرتب دوريات ليلية فى المدن من الخفراء للمحافظة على الأمن العام.

وعلاوة على « المحتسبين » أو حكمدارى البوليس أنشأ وظيفة مساعدة هى وظيفة « العرفاء » أو الخبراء أو المفتشين المساعدين وكان من اختصاصهم أن يمنعوا غش المواد الغذائية ويحولوا دون ارتكاب حوادث التزوير أو يعتقلوا مرتكبيها.

وبهذا النظام جعل الخليفة للمحتسبين والعرفاء سلطة مباشرة على اصحاب مخازن الأدوية و « الشربتلية » وباعة السمن والزيت والزبدة والفاكهة والقصابين وتجار الأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية والسماسرة والدلالين والنساجين والحائكين والصباغين والسروجية والاسكافيين والحدادين والنحاسين وتجار الرقيق والماشية.

وعين الخليفة عمالا خصوصيين لمراقبة الاطباء والجراحين وأطباء العيون والحجامين والمدلكين والمدرسين العموميين وكان على هؤلاء العمال كذلك ان يتفقدوا الحمامات العامة

والصهاريج والآبار والأسبلة .

وزود الخليفة المحتسبين بثلاث أدوات لمعاقبة مرتكبي الغش والتزوير وخيانة الأمانة ، وهى الجلدة ، والكرباج أو السوط وثالثها وأغربها « طاقية الفضيحة » أو « الطرطور » !

وهذه الطاقية كانت من لباد مكسو بقطع من القماش كثيرة الألوان وقد ربطت فى محيطها جلاجل أو أجراس صغيرة وذيل قط أو ثعلب ، وكان يقضى الحكم بأن يطاف بالمحكوم عليه فى شوارع المدينة وساحاتها وهو راكب على حمار وعلى رأسه هذا الطرطور الزخرفى لكى يراه غوغاء النـاس ويقابلوه بصيحات الاستهزاء والسخرية وبعد ما يتم تنفيذ العقوبة تقام حفلة يعلق فيها الطرطور أمام دار حكمدار البوليس ارهابا للأشقياء .

وبهذه الوسيلة حكم المعز امبراطوريته بالعدل والحكمة وفى الوقت عينه أدرك وجوب تعزيز الجيش فزاد عدده وجعله على تمام الأهبة فى جميع أجزاء الامبراطورية فصانها بذلك من مطامع الطامعين بل انها اتسعت وامتدت من فاس الى سوريا .

وكانت سوريا منذ حكم الدولة الطولونية إيالة تابعة لمصر وبقيت تحت حكم الفاطميين الى القرن الحادى عشر حينما عاد الترك الى الظهور على مسرح تاريخ الشرق باسم الدولة السلجوقية .

وتوفى المعز فى سنة ٩٧٥ م وهو فى السادسة والأربعين من عمره أى فى قوة رجولته بعد حكم كان من أزهى الحقب فى تاريخ مصر والشرق العربى وخلفه ثانى أبنائه واسمه الناصر واتخذ لنفسه لقب « العزيز بالله » واجتهد فى اقتفاء أثر سياسة أبيه ولكن لم تكن له حصافة عقله ولا حذقه ولا همته ومضاء عزمه.

وفى أثناء حكم العزيز حدثت فتنة أوقد نارها هفتكين وهو تركمانى حاول أن ينشىء إمارة مستقلة ونجح فى الاستيلاء على سوريا الجنوبية واحتل دمشق وتحالف مع القرامطة (١) إذ كان لهؤلاء مطامع قديمة فى مصر وكان خطرهم يقلق بال الفاطميين.

فلكى يبطش العزيز بهفتكين وحلفائه استنجد بجوهر الصقلى صاحب الماضى المجيد وقائد جيش أبيه، وكان جوهر قد اعتزل منصبه فى السنين الأخيرة من حكم المعز لسبب غامض وربما لوشاية واش.

وحينئذ زحف جوهر على سوريا واسترد موقع عسقلان الحصين فحاصره هفتكين ورأى الخليفة الشاب أن يذهب الى هناك بنفسه فى سنة ٩٧٧ م ولكن جوهر تمكن من فك الحصار

---

(١) القرامطة فرقة من غلاة الشيعة نسبة الي حمدان الملقب بقرمط وكان ظهورها فى سنة ٢٨١ هجرية

عن عسقلان وحشد قواته على مقربة من الرملة ولم يتردد فى مقابلة قوات العدو رغم تفوقها العددى واشتبك هذا القائد المجرب بالأربعين ألفا من المصريين والمغاربة والعرب مع هفتكين والقرامطة فى أودية الرملة ودارت بين الفريقين معركة أسفرت عن انتصار جوهر وبهذا الانتصار أنقذ الأسرة الفاطمية وعرشها ووطد سيادتها على سوريا .

وكانت معركة الرملة المتقدم ذكرها أعلى ما بلغته قوة الفاطميين العسكرية والفضل باجمعه فيها لعبقرية جوهر التى كلل بها هامته وأتم بها خدمته .

بعد ذلك وكل العزيز ادارة شؤون الدولة الى وزيره القدير ابن كلس وهو يهودى اعتنق الاسلام وأخذ هو ينصرف شيئا فشيئا الى العزلة والحياة الخاصة ليتابع دراساته للفلسفة والرياضيات لأنه شغف بها كل الشغف ، وجلب فى خلال ذلك كثيراً من المخطوطات النادرة زاد بها ثروة المكتبة التى كانت من المكتبات العامرة من عهد أسلافه وشجع رجال الفنون ورعى العلماء وبعد ما قضى فى دست الملك ٢١ عاما توفى فى بلبيس فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) .

ولكن هذا الخليفة الفيلسوف ترك كرسيه لرجل معتوه

لسوء حظ مصر خاصة وتاريخ العرب عامة وهو أبو على المنصور الشهير بلقب « الحاكم بأمر الله » فقد كان رجلا قلبا غريب الأطوار متفننا فى الشر ، ارتكبت فى عهده سلسلة من الأخطاء الباعثة على الأسف وكان عهد حكمه عهد اضطراب وهوس .

ويؤخذ مما وصفه به مؤرخو عصره انه كان رجلا مهيب الطلعة مديد القامة ذا عينين لا لون لهما ويشع منهما بريق كبريق عينى أسد فلا يستطيع جليسه أن يحدق فيهما أو يتحمل شعاع بريقهما وأجمع المؤرخون على التنويه بغرابة حدقتيه حتى ان لحظه يلمع فى الظلام كما تلمع لحظات بعض الضوارى ذات العيون الفوسفورية .

ولعل المراد بكل هذا الوصف أن يقول الواصفون ان الحاكم بأمر الله كان ذا عينين جميلتين ، أما هذا اللحظ الفوسفورى فربما كان صفة أسبغها عليه مؤرخ مولع باختلاق الغرائب فتراه بحث عن صفة غريبة لهذا الخليفة لكى يزيد شذوذه بروزا .

والواقع ان الحاكم ـ بقطع النظر عما قيل عن عينيه العجيبتين ـ كان رجلا غريباً شاذا إذ لم يكد يقضى على العرش بضع سنوات حتى أصدر فجأة طائفة من التشريعات والأوامر كل منها أشد من الآخر دلالة على غبائه واختلال عقله .

منها أنه أمر بأقفال الاسواق والحوانيت والمخازن نهاراً وفتحها ليلا ، ومنها انه حظر على النساء السفور وفرض عليهن الحجاب قسراً ولم يكن الحجاب معروفا بالمرة فى مصر قبل عهد هذا الحاكم بأمر الله ، ثم منعهن من رفع صوتهن وأمر بأن لا يتحدثن إلا همسا ولا يخرجن من بيوتهن وتوعدهن بعقوبات لا يسيغها العقل . ولكى يستوثق من تنفيذ أمره الصادر عن هذا الجنون المطبق أمر صناع الأحذية بأن لا يصنعوا أحذية للنساء وهدد من يخالف ذلك منهم بالاعدام !

ومن الأخبار التى كانت ذائعة آنئذ — ولو أنها بحاجة الى دليل — يؤخذ أن الحاكم كان يحب امرأة ولكنها كانت تمقته فآلى أن يثأر لنفسه من جميع النساء غير انه لا يمكن التحقق من مبلغ ما لهذا الانتقام من نصيب فى سلسلة النواهى السخيفة التى أصدرها .

ومن أعمال الحاكم انه أكره النصارى واليهود على حمل علامات تميزهم عن غيرهم بحيث يمكن رؤيتها من بعيد . وأمر بهدم الكنائس ومعابد اليهود فى جميع أرجاء امبراطوريته ثم عاد فسمح بتجديد بنائها واعترف لرعاياه بحرية اعتناقهم لما يشاءون من الديانات .

وبديهى انه ما كان ممكنا أن يسود عهد هذا الخليفة هدوء فى الأحوال المتقدم ذكرها فكثرت حوادث الشغب وتعددت الاضطرابات فى أثناء حكمه وعمت امبراطوريته كلها تقريبا ، وانى أكتفى منها بذكر حادثة واحدة كان حريا أن تكون ذات عواقب خطيرة لولا انها أخفقت .

وتفصيل الحادثة ان أميراً أمويا يدعى أبو ركوه طرده خليفة قرطبة فلجأ الى أفريقيه وجمع حوله ببرقة جماعة من المغاربة والعرب ثم قصد غزو مصر وبلغ بعسكره أسوار القاهرة فعلا وبادر الخليفة الفاطمى فجلب من سوريا مدداً من الجند على عجل فصدوا الغازى وأنقذوا العاصمة فى الوقت المناسب .

ولكن ما كاد هذا الخطر يتلاشى حتى عاد الحاكم فانغمس فى حمأة غرائبه الدينية وبعد ما كان شيعياً انقلب سنياً ثم غير رأيه وعاد شيعياً زاعما أنه الرسول السابع خاتمة رسل الاسماعيليين ثم أنشأ فى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م) ما دعاه « دار العلم » لكى يتخذ منها وسيلة لنشر المذهب الاسماعيلى وحاول أن يجعل هذا المذهب دينا رسمياً للدولة .

وفى نفس ذلك الوقت نشأت ديانة الدروز ولا يبعد أن يكون الحاكم بأمر الله هو مبدعها لأن الدروز لا يزالون حتى اليوم

يعدونه «الأله المتجسد فى صورة انسان»!

وجسم الوهم للحاكم اعتقاده بأنه ذو شأن خاص وانه تأله فجأة فصار يأتى أعمالا كانت من شدة تناقضها بحيث لا يستطيع عقل سليم المنطق أن يدرك لها معنى مقصوداً.

وكان فى جملة مستشاريه رجل كبير مسموع الكلمة عنده يدعى «درازى» أختلف المؤرخون فى أصله فمنهم من قال أنه كردى، وقال بعض منهم انه من الصابئة، وزعم آخرون انه تركى، وبقطع النظر عن هذا الاختلاف فى جنسيته هناك شىء محقق هو انه كان من شيعة الاسماعيليين.

ففى ذات يوم قصد درازى هذا أن ينشر فى مساجد القاهرة مكتوبا مبهم العبارة قال فيه ان روح آدم تقمصت فى على زوج بنت النبى ومنه انتقلت الى الفاطميين عامة والى الحاكم بأمر الله خاصة وانه سيظهر يوما فى صورة فائقة للطبيعة، الى غير ذلك من الخرافات. ومما لا يحتمل شكا ان الموعز بنشر هذا المكتوب هو الحاكم نفسه.

ومعلوم ان تأليه الملوك ونسبة الخصائص الفائقة للطبيعة اليهم من الأمور التى بطلت وامحى أثرها بعد انقضاء عهد الفراعنة ومن جاء بعدهم وأباطرة الرومان ولم يعد الناس يذكرونها بل

ان المصرى نسى هذا التأليه بعد ما اعتنق الاسلام . أما العرب فلم يكن التأليه يوما من الأمور التى تروق لهم ثم جاء التوحيد الاسلامى فلم يعترف بفكرة تجسد الله الأحد فى خليقة بشرية لأن ذلك لا يمكن أن يتفق مع وحدانية الله غير المتجزئة .

ولذلك ما كاد الشعب يستمع لما فى المكتوب حتى رأى ان المزاح فى هذه المرة تجاوز الحد فثار ثائر غضبه وهب السامعون كرجل واحد واندفعوا بقوة على هذا الأخرق ولكن درازى كان قد أسرع الى الفرار ولم ينج إلا بكل عناء من موت محقق ، أما أنصاره فأعمل الناس فيهم يد القتل وحرقوا بيوتهم بعد ما نهبوها .

ولكى ينقذ الحاكم بأمر الله صنيعته سهل له سبيل الهرب الى سوريا فلجأ الى لبنان حيث وجد له أتباعا فأنشأ مذهبه الدينى واشتهر أبناء اولئك الأتباع أو الأنصار باسم « درازى » ومنه اشتقت كلمة « درزى » وكلمة « دروز » المعروفة الآن .

أما الحاكم الغريب الأطوار ذو العينين العجيبتين فمنى بالأفلاس فى جنونه بالعظمة وتجددت فى عهده حوادث الشغب المتواصلة وأصبح اسمه فى التاريخ مذكوراً كما تذكر قشعريرة الحمى الخبيثة التى تصيب الجسم واختفى فجأة من المسرح إذ قتل فى

حادث لم ينجل سره فى ليلة ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م).

وترك الحاكم لابنه الشاب اليافع أبى الحسن على الظاهر عرشاً مثقلا بتركة من الأخطاء وعاصمة تغلى غليان القدر ووزراء يرتعدون فرقا وضباطاً مستعدين للفرار وهى حالة لا تدعو الى الغبطة.

ومن أغرب ما يذكر عن نهاية الحاكم ومن سخرية القدر وانتقامه أن امرأة خلفته على ادارة شؤون امبراطوريته واصلاح ما أفسده وهو ذلك العدو الألد للنساء. وهذه المرأة هى أخت الحاكم وقد نجحت بما أبدت من رباطة جأش تبعث على الاعجاب فى انقاذ دولة الفاطميين واعادة النظام إلى نصابه فى البلاد.

وقد ظن بعض من المؤرخين ان لهذه السيدة ضلعاً فى مقتل الخليفة، ولكن هذه التبعة أو هذه التهمة لم يقم عليها دليل ما.

ومما قاله «هوارت» فى كتابه «تاريخ العرب» عن موت الحاكم «ان الحاكم اغتيل غالبا فى جبل المقطم ولكن يظهر أن اغتياله لم يكن بأيعاز أخته كما زعم بعضهم».

ورغم ان هذا المؤرخ لا يشعر بميل للعرب فانه قال: «ان

ابنه لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره وان عمته صارت وصية على عرش المملكة وكانت امرأة قوية العزيمة شديدة الشكيمة فاعادت النظام الى البلاد بعد ما أعدمت عدداً من الضباط المحركين للاضطرابات فاستتبت السكينة بفعل تدابير شديدة اتخذتها ضد محدثى الفتن دون سواهم ».

وفى تاريخ الشرق أمثلة لكثير من النساء اللواتى امتزن بالذكاء واستطعن فى الساعات العصيبة أن ينقذن دولا من الانهيار وقبضن على دفة الحكم بيد البراعة والحكمة مما يحسدهن عليه كثير من الساسة .

وهنا يخيل الى ان القارىء يبتسم لقولى هذا ، فأود أن لا يخامره ظن بأنى أدافع عن قضية نسوية ، غير انه من الجهل بتاريخ الشرق عامة وتاريخ العالم الاسلامى خاصة أن نجحد أو نكابر أو ننكر الخدمات التى أسداها بعض من عظيمات النساء أو النصيب الذى لهن بحق فى مجد الشرق وهو ما يسوغ لنا أن نفتخر به . وعند ما نرى فى أثناء الأوقات المضطربة المرزوءة برجال مترددين — امرأة تخرج من خدرها بهذا الخلق العظيم فتتولى عمل الرجل وتبث فيه روح الشجاعة وتحل الحزم محل التردد والتقلقل فى الاعمال وتنقذ البلاد من السقوط — نقول

إننا عند ما نرى هذه المرأة يجب أن نصفق لها بكلتا اليدين ونعجب بها إعجابا قوياً لا تحفظ فيه .

ذلك لأن أمثال هؤلاء النساء هن من نوع استثنائى ونادر مما يدل على أن الطبيعة ضنينة بهن فلا تجود على الانسانية فى كل جيل إلا بواحدة من هذه الخلائق العجيبة كأنما هى تريد أن تقدم الى الرجال المستضعفين مثالا يحتذونه أو تلقى عليهم درساً قاسياً يتعلمونه .

والواقع أن هذه الأميرة العربية الماضية الهمة التى عرفت باسم « ست الملك » اضطلعت بمهمة الولاية على الخليفة القاصر وحملت عبء الوصاية على عرش امبراطورية الفاطميين وهو عبء ثقيل فأمرت على أثر موت الحاكم رجال الحرس المغربى والضباط الذين كانت فى الغالب قد اختبرت أمانتهم واكتسبت ولاءهم باحتلال دواوين الحكومة وعزلت مديرى الأقاليم وأحلت معتوقيها الخصوصيين محلهم . ثم خففت الضرائب عن عاتق الشعب المرهق بها وحظرت الاجتماعات العامة ونهت عن المباحثات والمجادلات الدينية فقضت بذلك على أسباب الفتن ، وبعد ذلك بحثت عن مثيرى الاضطرابات واختصت زعماءهم ببطشها فلم تمض الا بضع سنوات على حكمها حتى أستتبت السكينة فى

البلاد وذاق الخليفة الظاهر فى حياة عمته طعم الراحة ، وكان الفضل فى ذاك لبعد نظر هذه السيدة القدبرة وحكمتها . ثم توفيت حوالى سنة ٤٢١ ﻫ (١٠٢٠ م) .

ولكن لسوء حظ هذه الدولة خطر للخليفة الظاهر خاطر مشؤوم وهو أنه استبدل بحرسه المغربى جماعة من مرتزقة الترك وألف من هؤلاء جيشاً حقيقيا راجيا انه بادخاله هذا العنصر الأجنبى يستطيع أن يحتفظ بسلامة امبراطوريته الواسعة لاعتقاده أن هذا العنصر ليست له ثارات قديمة يسعى الى الأخذ بها ولا حقوق يدعيها ، ولأن الخليفة كان من جهة أخرى قليل الثقة بأبناء جنسه .

ومن الامور الغريبة ان التاريخ يروى عن العرب أنهم لا يثقون بأنفسهم وانهم يتطاحنون دائما فى ما بينهم وينبشون أحقادهم القديمة ويتخذون من منافساتهم معولا يقوضون به أركان وحدتهم ويقضون على ما بقى لهم من اتفاق .

وقد يقول قائل ان هؤلاء الترك المرتزقة أسدوا للعرب خدمات جليلة لأنهم كانوا فى ساحة القتال يرجحون كفة النصر ولكنهم كانوا فى غير ساحة الحرب يقتتلون فى ما بينهم فيتدخل المغاربة والعرب ويعيدون السلام الى نصابه ، وحينئذ كانوا

يتحولون الى الشعب فيحدثون بينه حربا أهلية أو يتحولون إلى الخليفة فيحدثون الثورة فى أحط أشكالها ، وانتهى الأمر بهم على مر الأيام ان لعبوا أشأم لعبة إذ صاروا شيئاً فشيئا سادة مطلقى التصرف فى الامبراطورية .

ولا ننكر ان الترك جنس فاتح وانهم متحلون بصفات حربية من الطراز الأول غير أنه تنقصهم شعلة العبقرية العربية وما امتاز به العرب من غريزة سامية للاستعمار وليست لهم كياسة العربى وفنه وعقله وفكره .

غير أن الترك رغم ذلك كانوا قوة هائلة ولهم فى تاريخ الشرق خدمات لا تنكر إذ انهم دافعوا عن الاسلام بسيفهم المصلت دفاعا باهراً لم يحابوا فيه أحدا ومن عمى البصيرة أن لا نرى هذا كله ومن بلادة الفهم أن لا نفهمه إلا أن بين العربى والتركى مع هذا فرقا شاسعاً واختلافات يجب أن تدركها الافهام ولعل كثيراً من الناس لم يدركوها لسوء الحظ .

وانى عند ما أذكر « الترك » هنا أرجو من القارىء أن لا يسىء فهم ما أقول ، فأنى لا أقصد السلجوقيين الباسلين الأمجاد الذين قاتلوا فى الحروب الصليبية بكل اخلاص وشجعوا الفنون الجميلة والآداب فى البلدان التى بسطوا سلطانهم عليها حتى القرن

الثالث عشر .

كما انى لا أقصد المماليك الذين يوصفـون عادة بأنهم ترك وحقيقة الأمر انهم من القرم أو شراكسة . كلا — لا أريد أن يختلط الأمر على القارىء فان هذين الجنسين يختلفان اختلافا تاما أحدهما عن الآخر .

أجل ان بين الترك والشراكسة بونا عظيما وفوارق يجب أن لا تغيب عن البال ولكنها غابت للأسف عن كثير من الناس مما أدى أحيانا إلى ابهام غريب فى تاريخ الشعوب عامة وفى حياة الأفراد خاصة . غير ان هذا شىء آخر .

فاذا تحدثت اذن عن الترك فى ذلك العصر السحيق فانما أنا أقصد المرتزقة أو الميلشيا أو التركمان والتتر الذين كانوا فى خدمة الخليفة الظاهر وكانوا قوما لا يفقهون للنظام والطاعة معنى بل كانوا قوما جشعين محبين للسلب والنهب .

وقد عرف الخليفة بأمرهم ولكن بعد فوات الوقت . ولما أيقن بما كان منهم نال منه الرعب فمات فى ١٥ شعبان سنة ٤٢٧ هـ (١٣ يونيو سنة ١٠٣٦ م) وكان موته فى الوقت المناسب حتى لا يرى بعينيه أشنع ماروآه التاريخ من حوادث السلب والنهب التى وقعت فى عهد ابنه ابى تميم الثانى الملقب

بالمستنصر بالله ، وقد كان من هؤلاء الأمراء المحبين للأبهة والعظمة الموصوفين بلين العريكة والذين خانهم الحظ .

وتاريخ هذا الخليفة معروف ولكن قل من وقف على تاريخ تلك الحادثة الغريبة ولعل القارىء من الذين لم يطلعوا عليها ولذلك فأنى سأعنى بأن أرويها فى الحديث الآتى

الحديث التاريخى الثالث

نهب تاريخى فى عهد الخليفة المستنصر
بالله — ثورة الجنود المرتزقة من الاتراك —
بيع كنوز الخلفاء الفاطميين بالمزاد العلنى فى
القاهرة — تبديد مكاتب ملوك العرب فى
القرن الثانى عشر — خاتمة الفاطميين

كان الخليفة أبو تميم المستنصر بالله فى السابعة من عمره عندما خلف والده الظاهر فى الخامس عشر من شعبان سنة ٤٢٧ﻫ (١٣ يونيو سنة ١٠٣٦ م)

وإذ كان قاصراً تولت والدته الحبشية حكم الوصاية ولكنها لم تتصف بالذكاء الخارق ولا بشجاعة الرجولة كسيدة الملك التى أرادت التشبه بها فساست شؤون الدولة دون رقابة ولا حكمة، فما أن رأت هذه الاميرة نجلها يرقى درجات العرش حتى أساءت الحكم الى حد كبير فضج الجنود المرتزقة الاتراك — وهم بضعة آلاف (ثلاثون ألفا) — ممن كانوا يعملون فى خدمة الخليفة تحت إمرة قائدهم الطموح ناصر الدولة الحمدانى وقبضوا

على أزمة الحكم بعد اضطرابات خطيرة ولم يلبثوا أن أصبحوا السادة المطلقين فى القاهرة .

ولما بلغ الخليفة سن الرشد — بعد مضى بضع سنوات — ازدادت حالة البلاد الداخلية والخارجية تحرجا ولم يعد لها من ذلك المأزق مخرج .

واستفحل الشر فلم يبزغ فجر عام ١٠٦٨ حتى طغى ناصر الدولة ولم يعد يرع للمستنصر بالله زماما ولا حرمة فاضحى الخليفة أسيراً فى قصره لمن كان بالأمس قائده .

وقد خصص المستشرق المعروف « اتيين كاترمير » الذى استقى بياناته من المراجع القديمة لذلك العصر بحثا وافياً لتاريخ هذا الملك التعس ووصف حياته وصفاً مؤثراً . فقد أصبحت حياة الخليفة حلماً مزعجا بين جدران قصر يحاصره جنود الاتراك المرتزقة الذين كانوا يطالبون يوما فيوما بزيادة أجورهم ويلحون فى طلبهم .

وقد نهب ناصر الدولة وجنوده المخيفون المرتزقة المصالح العامة واطلقوا يد السلب فى ايرادات المؤسسات الخيرية وسطوا على خزينة الدولة وقصور الخلفاء وعلى كل ما كان فى متناول أيديهم .

وسرعان ما نفدت موارد الدولة ، ولما لم يجد الخليفة من نفسه الحزم الكافى لوضع حد لشرور هؤلاء الجنود ولا الوسائل لارضاء مطالبهم الملحة ، توترت الحال بينه وبينهم الى حد أكرهوه معه على بيع التحف الثمينة التى جمعت فى قصره منذ عدة أجيال وجاها من ذكريات غالية لأسرته وأوانى ذهبية وفضية وكذلك جواهر التاج الخاصة وجواهر أسلافه من الخلفاء السابقين . وإنا نجد فى المراجع العربية القديمة وصفاً تفصيليا لتلك الثروات الطائلة التى كانت تضمها قصور الخلفاء فى النصف الأول من القرن الحادى عشر .

وقد بيعت فعلا كنوز الملوك الفاطميين وأورد لنا المؤرخ العربى المقريزى فى هذا الصدد رواية رائعة حيث يقول :

استدعى الى القصر بعض تجار الجواهر من مدينة الفسطاط وعرض عليهم فى بادىء الأمر صندوق يحوى سبعة امداد من الزمرد لا يقل ثمنها عن ٣٠٠ ألف دينار . فقال الجوهريون ان هذه الاحجار الكريمة لا تقدر بثمن . فطلب الضباط الاتراك فى الحال ان يرصد هذا الكنز عليهم بحجة ما تتطلبه نفقات الجيش من المصاريف الطائلة .

وعرض على الجوهريين بعد ذلك عقد من اللؤلؤ تقدر قيمته

بثمانين ألف دينار ، فطلب هؤلاء اللصوص ان يرصد عليهم أيضا
وبينما كانوا منهمكين فى التأمل الى ما حواه انقطع خيط العقد
وتناثرت حباته فأخذ أحد الضباط الاتراك حبة واحدة منها
وأخفاها فى جيبه وتمثل به القواد العظام الآخرون ثم التقط
باقى الضباط ما بقى من حبات اللؤلؤ فلم تمض فترة حتى كانت
آثار العقد كله قد اختفت .

واستولى الضباط كذلك على ما كان الصليحى أمير مكة
قد بعث به الى الخليفة من الدر النفيس الرائع الذى بلغت زنته
سبع ويبات . واستولوا على ألفين ومائتى خاتم محلاة بفصوص من
الاحجار الكريمة بينها ثلاثة لأجداد المستنصر بالله بيعت بعد
ذلك العهد باثنى عشر ألف دينار .

وجىء بعفاص فيه نحو ويبة من الجواهر ، ولما طلب الى
الجوهريين ان يقدروا قيمتها أجابوا بأنها فوق كل تقدير لا
يقتنى مثلها غير الملوك . اذ ذاك دخل جوهر المعروف بالمختار
وكيل بيت المال وأسر الى الخليفة ان تلك الجواهر قد
كلفت جده ٦٠٠ ألف دينار . فلم يكن من الخليفة إلا ان
أمر بتوزيعها على الاتراك .

ثم استطرد المقريزى فقال : « حدثنى من أثق به من المستخدمين

فى بيت المال انه استخرج من خزائن القصر ضمن ما استخرج منها عدة صناديق كان احدها يحوى مقداراً كبيراً من الأوانى المصنوعة من البلور الصافى .

وقد تولى ابو سعيد النهاوندى فى مدة وجيزة بيع ١٨ ألف آنية من البلور منها ما يساوى الألف دينار .

واخرجت من خزائن القصر اطباق من الذهب منها ما هو مطعم بالمينا ومرصع بالاحجار الكريمة ومنقوش بسائر أنواع النقوش . وقد بيعت كذلك تسعة آلاف علبة مختلفة الاشكال مصنوعة من الاخشاب الثمينة المحلاة بالذهب . ووجد أكثر من مائة كأس بنزهير نقش على معظمها اسم هارون الرشيد الخليفة العباسى ، وبعض الصناديق المليئة بالدوى المختلفة الاشكال المصنوعة من الذهب والفضة وخشب الصندل والعود والابنوس الوارد من بلاد الزنج وهى تمتاز بدقة صنعها وسلامة ذوقها وقد شوهدت فى القصر أيضا أباريق من الصينى مليئة بالكافور القيصورى واقداح مصنوعة من العنبر الشجرى وقوارير مسك من بلاد التيبت .

وقد بيعت طسوت كبيرة من الفضة يقدر الواحد منها بألف دينار وهى من الطسوت المخصصة لغسل الملابس ، ووجدت

لبوران محظية الخليفة المأمون حصيرة من الذهب الدقيق الصنع .

واخرجت من خزائن القصر أيضا ثمانية وعشرون طبقاً من المينا والذهب كان ملك الروم قد أهداها الى الخليفة عبد العزيز يقدر ثمن الواحد منها بثلاثة آلاف دينار وقد اعطيت كلها لناصر الدولة قائد رجال الميليشيا الأتراك ، ونال الضباط الأتراك الآخرون مراءى حديدية كثيرة لها مقابض من العقيق ومحلاة بالذهب المطعم بالفضة ومكللة بالأحجار الكريمة ومحفوظة فى علب ذات أقفال ذهبية ، وكانت هناك مظلات لها مقابض من الفضة والذهب . واخرج من خزائن القصر أيضا ما يقارب الألف من الآلات المصنوعة من الفضة المحلاة بالذهب فيها ما زنة القطعة الواحدة منها خمسة آلاف درهم ، وكان هناك مقدار كبير من رقع الشطرنج والنرد المصنوعة من الذهب وأحجارها من الأبنوس والعاج والذهب والفضة .

وكانت خزائن القصر تحوى أربعة آلاف قفص من الأقفاص الكبيرة المحلاة بالذهب وستة آلاف زهرية من الذهب لحفظ زهور النرجس والبنفسج وهى الزهور المفضلة لدي المستنصر بالله وستة وثلاثين قطعة من البلور واثنتين وعشرين قطعة من العنبر وعدداً لا يحصى من السكاكين وقد بيعت كلها بسبعة وثلاثين

ألف دينار .

وكان من أغرب ما فى القصر وأنفسه عمامة مرصعة بالجواهر تقدر بمائة وثلاثين ألف دينار ، وكان من بين الأحجار التى عليها ياقوتة تزن ٢٣ مثقالا ومائة لؤلؤة تزن الواحدة منها ثلاثة مثاقيل . (ويحتمل ان تكون هذه عمامة الخليفة الشهيرة) وكان هناك طاووس من الذهب مرصع بالجواهر النفيسة عيناه من ياقوت أحمر وريشه من الزجاج المينا ، وديك من الذهب المرصع باللآلىء له عرف كبير من الياقوت ؛ وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر نظم بطنه من الدر الرائع ، وبطيخة من العنبر فى صندوق من الذهب المرصع يزن ثلاثة الاف مثقال ومائدة نصب كبيرة ذات قوائم مخروطة يستطيع عدة أشخاص أن يتناولوا الطعام عليها ، ونخلة من الذهب لا تقدر بثمن وقد كللت بالجواهر واللآلىء التى تمثل البلح فى جميع أطوار نضوجه ، وطست من البللور والذهب المنقوش يساوى ثلاثة آلاف دينار .

وقد أتى المقريزى على ذكر الكنوز الرائعة التى وزعت أو بيعت للاتراك المرتزقين فى عشرات الصحائف ، ومن أغرب النفائس التى حوتها خزائن هذا القصر والتى لم يحصل على مثلها

أى ملك آخر فى التاريخ مهما شذت طباعه سواء أكان قمبيز أو هليوجابال أو كاليجولا أو نيرون أو كليوبطره، مع استثناء عظماء الهند من المغول وبالأخص ملوك جولكوند الخرافيين — زوارق النزهة وهى زوارق من الفضة فريدة فى نوعها فى التاريخ وصفها المقريزى فقال:

شوهد فى خزائن القصر زورق بعلمه وطنافسه صنع فى سنة ٤٣٦ هجرية وقد استعمل فى صنعه ما يقرب من ١٧٠ ألف درهم من الفضة، وصرف للصناع عن أجرة صناعته وثمن طلائه بالذهب خمسة آلاف دينار. وكان هناك زورق آخر لا يقل جمالا عن الأول صنع خصيصاً لأم الخليفة المستنصر وكان مجموع الزوارق الموجودة ٣٦ زورقا صنعت كلها من الفضة وفرشت بأثمن الرياش والطنافس، وهى الزوارق التى كان الخليفة ورجال حاشيته يستخدمونها للنزهة فى النيل وقد كلف صنعها ٤٠٠ ألف دينار.

وكان هناك أيضا بستان أرضه من الفضة المشغولة المطعمة بالذهب وطينته من الند وأشجاره من الفضة الموشحة بالذهب وأثماره من العنبر وغيره من العناصر الثمينة، وكان هذا البستان الفريد الثمين قائم فى فسحة بالقرب من جناح الملك الخاص فى القصر

وقد فتحت لتلك الطغمة من الجنود خزائن أخرى من خزائن قصر الخلفاء وكانت تحوى ألفى طنفسة من دمشق واصفهان وأقمشه مطرزة بالذهب لم تمد اليها يد . وأخرج من خزينة واحدة ثلاثة آلاف قطعة من القماش الدمشقى الأحمر المطرز بالأبيض وعدد لا يحصى من الطنافس والحرير والمخمل من مختلف الألوان مما لا يقدر بثمن ومقادير عظيمة من الحصر المطرزة بالذهب والفضة وقد رسمت عليها صور جميع الطيور والحيوانات . وقد أخرج من الخزائن كذلك ما يقارب الألف من هذه الطنافس كتب عليها تاريخ مختلف الأسر .

وقد آلت الى ضابط اسمه فخر العرب قطعة من الحرير الازرق التسترى المنسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان الخليفة المعز لدين الله قد أمر بصنعها سنة ٣٥٣ هـ وهى تمثل جميع بلدان الارض كالخريطة الجغرافية وقد ظهرت فيها بجلاء ووضوح مكة والمدينة وكتب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والحرير المطرز وكلف صنع هذه القطعة النفيسة ٢٢ ألف دينار .

ان وصف هذه القطعة الرائعة يؤيد لنا ما كان عليه الصانع العربى من براعة الفن وخصب المخيلة .

ان تعداد المقادير الكبيرة من خيم الحرب والمسرات وتوابعها قد يطيل بنا الحديث لذلك لن أشير الا الى خيمتين عجيبتين .

قال المقريزى ان تاج الملوك أحد الضباط الاتراك أخذ فيما أخذه من النفائس خيمة من الحرير الأحمر المنسوج بالذهب أمر بصنعها الخليفة المتوكل بدين الله .

وكانت احدىٰ هذه الخيم المعروفة « بالمدورة الكبيرة » تقوم على عمود واحد طوله ٦٤ ذراعا وهى مؤلفة من ٦٤ قطعة يجمع بعضها الى بعض بعرى وشراريب من الفضة ، وكان لا بد من مائة جمل لنقل مختلف اجزاء تلك الخيمة ومعداتها ، وقد رسمت على جوانبها الداخلية صور رائعة للحيوانات وفى أعلاها قبة للتهوية يبلغ ارتفاعها ثلاثين ذراعا ، وكان الخليفة المستنصر قد طلب الى ملك الروم عمودين لسندها طول كل عمود منهما ثلاثون ذراعا ، وكان عدد الخدم المكلفين باقامة هذه الخيمة واعدادها مائتى رجل .

وكانت خزائن الاسلحة تحوى عددا لا يحصى من الخوذ والدروع والسروج المحلاة بالذهب والمرصعة بالاحجار الكريمة والسيوف الفولاذية والصناديق المليئة بالاقواس وجعاب السهام

والرماح والنشاب والمزاريق .

وقد ذكر لنا المقريزى والمؤرخ ابن عبد العزيز ان الخزائن كانت تحوى مائة ألف قطعة من السلاح علاوة على الدروع المحلاة بالذهب وعددها ١٩ ألف درع ، والاعلام وسواريها الذهبية والفضية وملابس الاستعراض والتشريفات التى كان يرتديها ضباط القصر الملكى وهى تعد بالألوف .

وقد اقتسم الضباط الاتراك العشرة الثائرون على المستنصر معظم هذه الأشياء وكذلك آثاراً تذكارية عسكرية ثمينة تخلفت عن الاسلام مثل :

« سيف الحسين بن على بن ابى طالب (حفيد النبى صلعم) وترس حمزه بن عبد المطلب (عم النبى صلعم) وسيف عمرو بن العاص فاتح مصر وترس جعفر العادل وسيفه .

« سيف وعلم عبيد الله مؤسس الاسرة الفاطمية فى القيروان »

وقد ذكر ابن عبد العزيز الذى نقل عنه المقريزى ان عدد الاشياء الثمينة التى أحصيت امامه فى هذه المناسبة لتوزيعها على القواد الاتراك الثائرين كان يربو على المائة ألف .

« وأخيراً » المفروشات والتحف الأخرى التى بيعت بالمزاد فى الخمسة عشر يوما الاولى من شهر صفر سنة ٤٦٠ ﻫ وهى تحف

وان تكن قدرت بابخس الاثمان فقد بلغ ثمنها ٣٠ مليون دينار وذلك فضلا عن التحف التى سلبت أو أخفيت .

ولا شك ان من أهم الخسائر التى سببها الخليفة الضعيف البليد المستنصر بالله وارث هؤلاء الامراء الفاطميين الذين تدين لهم مصر بنهضتها الثقافية كان انقراض مكتبة الفاطميين العظيمة الرائعة .

وانى سأحدثكم يوما ما عن مكتبة الفاطميين المدهشة فى القاهرة كما سأحدثكم عن مختلف مكاتب وامراء الأسر والدول الاخرى من العرب .

ثق ياصديقى الشاب ان امراء الشرق والغرب لم يمتلكوا فى أى عهد من تاريخ العالم مكاتب كانت تضم بين جدرانها مئات الألوف من المخطوطات كالتى كانت تضمها مكاتب ملوك العرب .

ونحن اذا استثنينا ــ اللاغويين وبعض قياصرة الرومان مثل طبريوس اورليانوس وماركوس أورلوس وسبطيموس سفيروس وملوك بيزنطة مثل جوستنيانوس الأول وميخائيل الثانى أو الكسيس كومينين وجميعهم اشخاص افذاذ جمعوا ما جمعوه بطريق الهوية والعلم ــ لم يكن من ملوك أوروبا وامرائها لا من آل فالوا أو تودور أو ستيوارت أو بوربون أو هابسبورج أو مدسيس أو فارنيز أو بورجيا من يملك مثل هذه

الثروة العظيمة من المؤلفات من جميع الفنون واللغات .

ومما يعطينا فكرة ولو غامضة عن فخامة تلك الثروة الادبية ان الخلفاء الأمويين ثم العباسيين فى بغداد كانوا يملكون مكتبة خاصة مؤلفة من ٥٠٠ ألف مجلد منها الكالدى والفينيقى والعبرى واليونانى واللاتينى والفارسى والعربى .

فمدينة بغداد وحدها كانت تحوى ٢٣ مكتبة عمومية فضلا عن مكاتب الهيئات المختلفة والمعاهد الدراسية الخ .

وكانت مكتبة بلاط الحكم فى قرطبة تضم ٦٠٠ ألف مجلد منها ٤٤ مجلداً للفهرست .

وقد ذكر المؤرخ « دالور » فى مؤلفه الذى وضعه عن « تاريخ باريس » « ان المكتبة الملكية وهى أول مكتبة أسست فى فرنسا أصبحت تحوى بعد جميع الجهود التى بذلها الملك « شارل الحكيم » (وذلك نحو ٤٠٠ سنة بعد خلفاء قرطبة) ما يقرب من تسعمائة مجلد ثلثاها من كتب اللاهوت » :

وكانت اسبانيا الاسلامية وحدها تضم ٧٠ مكتبة عمومية وان اكسيمينيس وتوركويمادا لمسئولان عن فقد هذه المكاتب الرائعة التى أمرا بأن يلقى ما فيها طعاما للنيران .

وكانت مدينة حلب تحت حكم الفارس سيف الدولة ابو الحسن

بن حمدان أمير حلب تحوى ١٤ مكتبة عمومية . وكانت مكتبة الأمير تضم ١٦٠ ألف مجلد اتلفت كلها فى أواخر القرن الثانى عشر إبان غزو المغول .

ولنرجع الآن الى الخليفة البائس المستنصر بالله الذى يعد تاريخ حياته سلسلة نهب وسلب فقد أضاع عليه جشع جنوده جزءاً كبيراً من كنوزه الطائلة ومكتبته التى لا تقدر بثمن ولكن تتائج بلادته كانت أشد وبالا عليه فأدت الى انهيار أسرة الفاطميين .

وقد حررته المؤامرة التى أودت بحياة ناصر الدولة من ضابط وقح ولكنها لم تصلح الحالة ، فقد عين المستنصر خلفا لناصر الدولة شخصا لا يقل خطورة عنه وهو رجل تركى يدعى « الديجز » وقد تمادي هذا الأخير فى سطوته الى حد الغاء ذكر اسم الخليفة من الصلوات العمومية واستبداله باسم خليفة بغداد القائم

وأخيراً انتهى المستنصر بادراك الخطر المحدق به فنفض عنه غبار الخمول وتسلح بالحزم والنشاط ، واستدعى لأنقاذه من حراسة الاتراك بدر الجمالى الارمنى الذى قدم مصر عام ٤٦٦ هـ (١٠٧٢ م) تصحبه جنوده المرتزقة من التتر والارمن .

ولم يتردد بدر الجمالى عند تقلده القيادة العليا للقوات العسكرية بلقب « أمير الجيوش » فى اعدام الأمراء الأتراك فى القاهرة

جماعات جماعات لانقاذ مولاه الذى أخلص له كل الاخلاص ولم يخطىء فى حقه مرة واحدة ، وهكذا عادت الطمأنينة أو ما يشبهها الى البلاد على أثر تلك الديكتاتورية الدامية واستطاع المستنصر بفضل التدابير الحازمة التى اتخذها خادمه المخلص أن يحكم من وراء ستار غير مكترث الا بلذاته وحدائقه ونباته النادر وطيوره الغريبة وأقزامه ومضحكيه فى البلاط ، وقد مكث فى الحكم أكثر من أسلافه إذ قضى ٦١ عاما انتهت فى إحدى ليالى ربيع سنة ٤٨٧ هجرية (١٠٩٤ م) فيكون بذلك قد ضرب الرقم القياسى فى طول مدة الحكم . وبموته أفل نجم الفاطميين نهائيا فى أفق الشرق .

وقد خلفه على العرش نجله الثانى « المستعلى » من سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) الى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ويمكن أن يقال عن حكمه انه أشبه بالاحلام أو حكم الأشباح

وخلف هذا الأخير نجله « الأمير » سنة ١١٠١م وهو فى الخامسة من عمره ، فكان سلوكه المشين فيما بعد وتعدد جرائمه سببا فى كراهية الناس له فاغتيل سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) وخلفه على العرش الخليفة الحافظ ابن عمه وبذلك انتقل العرش الى أسرة الفاطميين التى تليها نسباً ، ومرت مدة حكم

الحافظ — وهى عشرون عاما — وسط تقلبات دامية وحوادث مروعـــة .

وفقد الفاطميون بضياع قيروان آخر ممتلكاتهم فى أفريقيا الغربية كما أنهم فقدوا فى سوريا امارة قيصرية وحصن عسقلان .

وبعد وفاة الحافظ عام ٥٤٤هـ (١١٤٩م) تقلب على العرش ثلاثة أمراء شبان وهم خلفاء لا يستحقون الذكر . فقد كانوا كالأشباح يافعين غير نافعين مبعدين فى عقر قصورهم ومحكومين من وزرائهم وجنودهم الثائرين ، لقد ولدوا ليكونوا طعمة الموت وهم فى فجر حياتهم فلم يتمتعوا من العرش إلا بظله ومن الملك إلا بصولجانه وتاجه الى ان دقت ساعتهم ونال منهم الخنجر أو السم فأنقذ حياتهم مما كان يرقبها من عذاب أليم وحـــكم رهيب كان فاتحة لمأساة الحروب الصليبية الأولى .

لن يبقى من هؤلاء الفاطميين الانانيين غير ذكرى مجدهم التالد ، ولن يبقى من ذكريات عصرهم غير هـــذه الجوامع الاثرية التى لا تزال قائمة فى مصر القديمة وما تحمله الى النفوس من رهبة وروعة ، ولن يبقى من أبنيتهم الشامخة الجميلة غير تلك الاسوار المحفورة وأحجارها المتداعية ، وغير تلك الأبواب المعقودة وتلك النوافذ البديعة ، وغير تلك الآثار العربية الدقيقـة

الجميلة وتلك الحلى المصنوعة من البرونز وأوانى الفخار الرقيق والرخام المنحوت المخرم والمصابيح المطفأة، ولن يبقى من فنونهم غير رهبة تلك العقود المصنوعة من الأخشاب الثمينة أو المطعمة بالصدف والعنبر والعقيق والعاج الدقيقة الصنع المنوعة الاساليب تتخللها نكهة الصندل والعود التى تضوع من تلك الأخشاب خلف جدران تلك الجوامع القديمة الصامتة .... لقد مرت دولة الفاطميين ....

وتلتها دولة أخرى دولة جنود محاربين : هى دولة الأيوبيين.

ليس هناك شك فى أن ظل ذلك العصر المتداعى ، ذلك العصر الذى آل فيه الاسلام إلى الانهيار بين براثن الصابيين لابد أن يطغى على روعة أمراء العرب فى الشرق الادنى.

وكان لابد أن تنبثق من ذلك الظل شعلة من النار ويتألق وجه جديد يستضىء به الشرق وذلك الوجه الجديد تعرفونه كلكم فهو وجه الفارس المسلم صلاح الدين الأيوبى ذلك البطل الذى كان قلبه وروحه يشتعلان بنيران الحروب فكان لايعرف الهزيمة ولا يقبلها فوقف فى وجه اوربا المتحالفة ، أوروبا نصف الهمجية ليقول لأمرائها المحترمين الذين وقفوا أمامه صاغرين معجبين :

« قفوا .. لن تمروا .... »

الحديث التاريخى الرابع

غزاة العرب وفتوحاتهم

خالد بن الوليد — معاوية وأخلاقه —
توطيد دعائم الامبراطورية — المملكة
الأولى — البحرية الحربية الاولى —
الأمويون — الجامعة الاسلامية فى
الصين والهند فى القرن الثامن — الرحالة
العرب فى المحيط الهادى — فتح اسبانيا —
طارق بن زياد — معارك «كسيريس»
ووادى البكاء — بلاط الشهداء

إنا لنسائل أنفسنا عما كان سيحل بالاسلام أمام الفوضى المروعة والثورات المتوالية والانحطاط الادبى الذى كان يسود مصر فى أواخر عهد الفاطميين حيث اغتصب طغمة من الجنود المرتزقة زمام الحكم دون أن يكون هناك - حتى مجىء الايوبيين - رجل واحد يجد من نفسه العزيمة الكافية ورباطة الجأش لينتزعه

من برائنهم وينقذه من أيديهم .

ما ذا سيحل بالاسلام أمام عوامل الشقاق التى كانت تمزق القوات العسكرية التابعة لأمراء المسلمين الآخرين بالشرق فى أواخر القرن الحادى عشر . ففى سوريا وفلسطين والعراق كان الأمراء بين كل حملة من حملاتهم ضد البيزنطيين يعاودون منازعاتهم العائلية أو الشخصية ، فينهكون بذلك قواهم ويعملون على فك عرى التضامن الذى كان من شأنه أن يحميهم وينقذهم من كل خطر قد يستهدفون له جميعاً ؟

ما ذا سيحل بدولة العرب أو حضارتهم امام الغرب المذعور الذي بدأت نيران الغيرة تلتهم قلبه من ثقافتهم وشدة بأسهم ذلك الغرب الذى جن جنونه من وجود العرب بين ظهرانيه والذى لم يلبث ان ثارت ثائرته عليهم فردهم على أعقابهم من حيث أتوا ؟

ما ذا سيحل بالاسلام ياترى ؟ . . .

فلنلق نظرة عاجلة إلى العالم فى القرن السابع حيث كانت الممالك والدول تنهار الواحدة تلو الأخرى .

لقد كانت الامبراطورية الرومانية ، التى كانت قبائل البربر تتحفز للأنقضاض عليها عرضة لعوامل الانحلال التى

أخذت تنخر فى أسسها فعجلت فى انهيارها وفنائها .

وكانت امبراطورية « الفرنج » فى الغـــرب منهمكة فى ترقب حركة التنازع التى نشأت بين « نوستريا » و « أوسترازيا » .

أما الامبراطورية اليونانية فى الشرق فكانت عاجزة عن وضع حـــد لمنازعاتها الدينية . وكان هرقل يحاول عبثا التمسك باهداب مجد بدأ يفلت منه ويهجره .

وأمام أعين هذه الممالك قاطبة بزغت شمس امبراطورية فتية من جوف صحراء جزيرة العرب المقفرة الجرداء .

كانت جزيرة العرب فى القرن السادس ملجأ لجميع الاديان ومهدآ لمبادىء التعصب والضلال إلى أن هذبت وانقــذت وبعثت بفضل جهود رجل واحد هو النبى (صلى الله عليه وسلم) .

انبعث الاسلام من صدر جزيرة العرب نفسها دون أن يوجه اليه العالم بادىء ذى بدء أى اهتمام فلم يكن هذا الدين الجديد يعتبر عندئذ تهديداً مباشراً أو خطرا داهما على المسيحية الى مابعد وفاة النبى (صلعم) سنة ٦٣٣ م اذ ذاك هبت جحافل من العـرب الأشداء لا غاية لها إلا الفتح ونشر الاسلام ووقفت كتلة واحدة فى وجه آسيا الغامضة المستهترة وافريقيا الخاملة واوروبا الماجنة

سيروا معى فى إثر هذه الجحافل الجديدة . . ففى عهد ابى بكر

الصديق الخليفة الأول دق ناقوس الفتح فسمعت رناته فى نجد واليمن والعراق ثم رددت صداه بلاد عمان والبحرين وحضرموت

كان لأبى بكر قائدان محنكان هما : اسامة بن زيد وخالد بن الوليد فنيط بخالد بن الوليد مهمة قمع الثورة فى جزيرة العرب واخضاعها ، فأخمدها وسار إلى العراق وهزم الفرس وانتزع منهم الحيرة والأنبار ثم توجه إلى الشام حيث كان الامبراطور هرقل يحشد جيشا عرمرما ليقاوم به جيوش العرب ووقعت الملحمة بين الجيشين بجوار البصره فهزم خالد بحنكته الفائقة جيوش هرقل وسحقها ثم مشى نحو دمشق . فكان ذلك أول انذار لبيزنطة والمسيحية .

وفى خلافة عمر بن الخطاب عزل خالد من منصب القيادة العامة لما أظهره من ضروب القسوة والانتصار المتواصل ، على أنه استمر فى خدمة الجيش تحت امرة أبى عبيدة وكان هو الذى عاد فهزم الجيوش البيزنطية على أثر عودتها بالقرب من نهر العاصى

إذ ذاك استولى العرب على حمص وحماه وطرسوس وبعلبك وقيصرية وحلب وانطاكية وهيريوبوليس وعكا وبيروت وصيدا ودانت لهم الشام بأسرها على أثر استيلائهم على مدينة اللاذقية آخر معقل حصين للروم فى تلك البلاد .

وفى غضون ذلك حاصر عمرو بن العاص مدينة القدس واحتلها ثم لم يلبث ان انتزع مصر من قبضة البيزنطيين .

وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، عهد المطامع العظام ، سيطر العرب على بلاد أرمينيا .

لقد كان معاوية أيام خلافة عمر حاكما على الشام وقد أدرك عندئذ انه من السهل نشر لواء فتوحاته بانشاء اسطول تمده مدن الشام الساحلية بكل ما هو فى حاجة إليه من الرجال والعتاد ولكن الخليفة عمر أبى أن يشاركه هذا الرأى .

وفى خلافة عثمان القصيرة الامد جهز معاوية اسطولا أحاطه بوحدات من السفن المصرية وغزا به جزيرة قبرص ثم جزيرة رودس وخرب سلاميس التى كانت تسمى قسطنطيا فى ذاك العهد .

وفى غضون ذلك كان عبد الله بن الزبير قد أخضع طرابلس وأباد فى موقعة جاكوسا جيوشا أخرى من جيوش بيزنطة التى كان يقودها غرينوريوس القديس وهو من أعظم قواد الروم وأقدرهم .

وفى خرسان زحف العرب بقيادة عبد الله بن أمير حتى نهر الاوكسوس .

وكانت تخرج من الشام كل سنة حملات من الجند تجوب أنحاء آسيا الصغرى مهددة كيان بيزنطة. واستمرت هذه الحال إلى اليوم الذى استصوب فيه الامبراطور قسطنطين الثانى أن يعقد هدنة مع معاوية الجبار لمدة ثلاث سنوات فى نظير جزية يدفعها له.

وفى خلال هذه الهدنة مع بيزنطة اجتاز سليمان بن ربيعة ممر دربند حيث تنحدر جبال القوقاز حتى بحر قزوين وأراد اخضاع الخزريين. فكان ذلك أول احتكاك بين العرب وبين تلك القبائل المستوحشة من عمالقة القوقاز الذين لم تنفع القوة فى اخضاعهم ولن يخضعوا لها ابدا. وقد هزم سليمان بن ربيعة وأبيد جيشه عن بكرة أبيه سنة ٦٥١م.

ولكن حيث لم ينجح السيف فى نشر عقيدة وسلطان مجهولين — نجح تغلغل تجار العرب السلمى فى تلك البلاد وتبشيرهم بالاسلام بعبارات مقنعة هادئة فى نشر العقائد الاسلامية فى كثير من قبائل القوقاز برمتها، فانضمت تلك القبائل فيما بعد الى جيوش المسلمين وجحافلهم.

ولما انتهى أجل الهدنة بعد انقضاء ثلاث سنوات قام معاوية بحملة بحرية لفتح القسطنطينية، فأقلع اسطوله بقيادة أبى الاعور

وسار حتى كاليدونيا ودمرها على أنه لم تلبث أن هبت عاصفة هوجاء حطمت الاسطول عن آخره .

لم تفت هذه الهزيمة فى عضد معاوية ولم تدخل اليأس فى قلبه . فقد عقد النية على تحطيم الامبراطورية البيزنطية . وانه لفاعل فقد استولت جيوشه على مدينة سيزيك وسارت حتى اسوار القسطنطينية فحاصرتها ستة أعوام بغير ما جدوى . وهنالك تحت تلك الاسوار قضى أيوب الأنصارى آخر رفيق من الصحابة الذين عاصروا النبى (صلعم) .

وفى غضون ذلك قام ابن الحجاج بحملة بحرية على جزيرة صقلية فاخضعها واكتسح سواحل ايطاليا ، فى نفس الوقت الذى قام به عقبة بن نافع بفتح افريقيا الشمالية حيث شاد مدينة القيروان عام ٦٧٥ م ، وإبان ذلك سار جيش عربى بقيادة زياد واجتاز نهر الاوكسوس من جديد وتغلب على قبائل التركمان فى ترنسوكسانيا ونشر فيها تعاليم الاسلام .

لقد حقق العرب معظم فتوحاتهم وأجلها فى عهد خلافة معاوية بن ابى سفيان وبفضل ارشاداته الحكيمة .

وأتم معاوية تأسيس الجامعة الاسلامية التى طالما فكر فيها أسلافه وأمدها بنظام داخلى وخارجى من أدق الأنظمة التى

عرفت فى ذاك الوقت وأشاد أركان الامبراطورية وركز اطرافها بانشاء نظام البريد فضمن بذلك سرعة المواصلات بين مختلف اقاليم الامبراطورية . والله أعلم بمدى اتساع تلك الامبراطورية !.. فقد كانت تمتد من المحيط الاتلانطى حتى الاوكسوس .

وانه لخليق بنا أن نقول بأن مكاتب البريد تلك كانت نماذج قامت على أوضاعها وزارات المواصلات الحديثة .[1]

وأسس معاوية فضلا عن ذلك « ديوان المالية » أو « ديوان الخاتم » ، واختصه بمراقبة مصاريف الخزينة ، ولئن كانت هناك مصالح مشابهة من عهد الخلفاء السابقين (عمر وعثمان) فان معاوية قد حولها وجعل منها وزارات حقيقية بنظم ثابتة وقواعد للاشراف والمراقبة .

وهو الذى انشأ ايضاً أولى « دواوين الحرب » وعهد اليها باختيار الرجال الصالحين لحمل السلاح وفرزهم وتعادل هذه الدواوين تقريبا مكاتب القرعة فى عهدنا .

---

١ — بلغت مكاتب البريد فى عهد العباسيين درجة الكمال فى نظمها وحسن ادارتها حتى اثارت اعجاب الاجانب أنفسهم ممن كانوا على اتصال بالامبراطورية العربية وقدتضمنت المراجع البيزنطية للقرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر تفاصيل مفيدة عن مكاتب البريد ونظمها وقد وصفها المؤرخون المعاصرون مثل « كاترمير » و « ليبون » و « كورتلمونت » وشلامبرجر الخ ... وصفا مستوفيا وعلقوا عليها باسهاب .

على أن أغرب منشئاته كلها كانت الاساطيل البحرية الاسلامية الاولى.

وانه لوصى مدهش عجيب ذلك الذى دفع بهذا العربى الذى نشأ فى جوف الصحراء بعيداً عن لجج البحار الى اكتشاف ما للبحر من صولة ودولة فأدار له وجهه وسدد نبال شعبه نحو ذلك الافق البعيد حيث توجد أجمل الفتوحات وأسماها.

ولم يكتف معاوية بذلك بل طلب المزيد من المستزيد كان يفكر ويرمى الى تنفيذ فكرته... ويرغب فى شىء كان لابد له من الوصول إليه. كان يحلم فى انشاء دولة مطلقة ومملكة شاسعة. فهل لك أن تسايرنى فى تحليلى الدقيق لتلك الشخصية المزدوجة التى اضفى عليها التاريخ ظلا من سوء الظن بها قد يكون بعيدا عن الحق، والتى وصمه بها القدر بوصمة النكرة المجهولة وانه ليحسن بنا أن نزيح، قدر المستطاع، ستار المزاعم الباطلة ليتسنى لنا رؤية الاحداث والشخصيات التاريخية فى شرقنا كما كانت عليه مجردة عن الاساطير التى احيطت بها، وعن ستار الاوهام المغرضة الذى نسجته حولها دعاية كاذبة فى غالب الاحيان

انى لا أعرف. أنا التى لست بمؤرخة أو عالمة بسيكولوجية بل راوية بسيطة مجهولة، إذا كان معاوية اتصف برفيع الخلال

ولكننى أعلم جد العلم أنه كان ذا شخصية فـــذة ... فلنرقب ولنقتف اثر معاوية عام ٦٥٦ م قبيل الحوادث الجسام الحاسمة التى وقعت إبان ذاك الوقت .

ففى عام ٦٥٦ كانت المؤامرات فى المدينة تحاك فى كنف الخلافة المتداعية . وكان الخليفـــة عثمان ضعيف الارادة مترددا فاستدعى لنجدته قائديه عبد الله بن أمير والى البصرة ومعـــاوية والى الشام وكلاهما أموى ومن لحمته الاقربين .

على أن معاوية وجنوده وصلوا متأخرين فوجـــدوا الخليفة قتيلا ووجدوا الفوضى تمزق احشاء جزيرة العرب من أدناها الى أقصاها . فلما نادى معاوية طالبا الثأر لاغتيال عثمان انضم تحت لوائه الأمويون وانصارهم قاطبة وكانوا عديدين . أما أنصار على زوج كريمة النبى (صلعم) الذين كانوا يطالبون بالخلافة لزعيمهم منذ أمد طويل فقد تحدوه ووقفوا فى وجهه . ولم يكن أنصار على ولا أنصار معاوية مسئولين عن اغتيال الخليفة ومع ذلك نشأ القتـال بين الفريقين شديداً عنيفا لا رحمة فيه ولا هوادة وكلا الفريقين يسعى الى تقلد زمام الخلافة .

وبعد معارك دامية أعوزتها النتائج الحاسمة لجأ الفريقان إلى التحكيم لتقرير المصير بين على ومعاوية والمناداة بأحدهما خليفة

على المسلمين . فعمد عمرو بن العاص فاتح مصر السابق الى مكيدة لا تشرفه ليسلب علياً حقه فى الخلافة . فأبى على الخضوع والاستسلام فدبرت مؤامرة أخرى لوضع السلاح والكف عن القتال وقر قرار المتآمرين على حل المشكل باغتيال على ومعاوية وعمرو بن العاص على أن يقتل ثلاثتهم فى يوم واحد ولكن خناجر المتآمرين لم تنل الا من على وحده .

وعقب تلك الاحداث الدامية بايع الشيعيون فى فارس نجل على الأكبر بالخلافة على الرغم منه . أما معاوية الذى كانت تدين له الشام ومصر وجزيرة العرب ومدينتا مكة والمدينة المقدستان فقد اعترف له انصاره بحق الخلافة . وهكذا استؤنفت الحرب فانقسم المسلمون على بعضهم . على أن انصار على لم يلبثوا ان هزموا ولم ير نجله بدا من التنازل عن حقوقه فى الخلافة فاصبح معاوية السيد المطلق والآمر المطاع .

وهكذا خلف معاوية الخلفاء الراشدين الاربعة فى حقبة من أشد حقبات التاريخ حرجاً وفى أيام اندلعت فيها نيران الحروب الأهلية وفاضت دماء المجازر بين الاشقة المقربين من العرب . وهى لعمرى حوادث لا شك فى أن تبعة بعضها تقع على عاتق معاوية وان كان بريئا من تهمة الاشتراك فى اغتيال على الخليفة التقى الورع

سواء أكان ذلك بطريق مباشر أم غير مباشر .

وعلى الرغم من الظروف التى اقترنت بتوليه الخلافة فأن شخصيته لتمتاز وتسمو على مستوى معاصريه وعهده مما اتصف به من قوة الخلق والذكاء الخارق والتمسك بأهداب الرقى والسعى الحثيث وراءه .

إنه ليبدو لنا كمتمم للاعمال الجسيمة التى لم يتسع الوقت أمام اسلافه العظام لانجازها وهى الاعمال التى سعى الى توجيهها توجيها جديداً عسى ان يستخدمها فى تحقيق أغراضه الخاصة .

فى سنة ٦٥٦ م بلغ معاوية الثامنة والاربعين من عمره وكان إذ ذاك فى عنفوان صبوته وأوج ملكه ومجده .

ولم تكن فى شخصيته الغريبة التى تتجلى فيها العزيمة والسيطرة والدهاء مجال للضعف أو الوهن فكان تجرده سطحيا وبساطته ظاهرية ، وسلامة نيته مصطنعة . فهو بعيد عن التسامح والصفح والعفو وكل ما كان فيه أو يبدو منه كان نتيجة حساب دقيق لا أثر فيه للصغائر بل كان ينطوى على كثير من العظمة فلئن كانت مطامعه الشخصية وتعصبه الأعمى لاسلافه الى حد الانانية تسود شعبه وتجعل منه حاكما مستبدا فلقد كان ذلك منه بحكم الغريزة وبدافع الكبر عند سليل قريش وابن اولئك

الارستقراطيين الذين رفعوا لواء الاسلام . اما الى أى حد كان يطمع فى تسنم المجد ـ سواء لنفسه أو لمصلحة ذويه ـ فهذا ما يصعب بل ما يستحيل علينا تحديده .

كان معاوية يتابع فكرته ويخدم شعبه قبل كل شيء وفوق كل شيء .

لقد كان يحب شعبه بل قد يكون ذلك الحب هو الوحيد الذى غمر فؤاده وملك عليه حواسه . أما قضية هذا الشعب فأنه لم يكن ليفرق بينها وبين مطامعه الشخصية فقد مزجها به حتى أصبحت السبب الوحيد فى كيانه .

وكان لابد له ـ لاحراز النصر لهذه القضية ـ من طمأنينة لم ينعم بها قط ووئام يستحيل عليه تحقيقه مع ذلك الشعب العربى الثائر المتأجج النزعات . ذلك الشعب الذى عركه وخبره حق الخبرة لمشاطرته إياه جميع تقلباته والذى يستطيع ان يرجو منه كل شيء ويخشى كل شيء . ولكن كان لا بد لهذا الشعب أن يكون عظيما وعظيما بفضله .

ولكن أى طمأنينة وأى مستقبل كان يمكن ان يرجوهما ذلك الذي رفعه الانتقام وحمله الدهاء الى قمة المجد والسلطان بالنيل من على ! فلقد كان من المحتمل أن يسقط بدوره اسوة بغيره وان

يناله سيف النقمة العربي دون أن يكون لتلك النقمة مبرر او سبب ، لقد ولد فى أحضان الانتقامات العربية وحبائل دسائسها وكان ملما بجميع أساليبها و نتائجها الحتمية ، حتى اذا ما قضى نحبه طغت الفوضى من جديد على هذا الشعب العظيم الجموح الذى يجرى الدم حاراً فى عروقه ، ذلك الشعب الذى كان ينقصه احيانا شىء قليل من ثبات الحكمة والمنطق .

وما ذلك الا لأنه رأى عمر النزيه وعثمان المتردد يسقطان بطعنة خنجر سددته يد المؤامرة . ولم ينس أن السيف الذى نال من على كاد أن ينال منه هو معاوية .

كانت المنازعات والثورات والاضطرابات تعاود سيرتها وأعمالها المدمرة ، فتفرق بين العرب وتجعل منهم أحزابا تقف فى وجه بعضها . كلما نال الموت من أحد الخلفاء فسقط بيد الغدر ، أو حيكت مؤامرة حول أحد رؤساء الدولة وزعماء الديمقراطية فأوقعته بين حبائلها ارضاء أو اشباعا لرغبة غيره ومطامعه ولما يتمكن من خدمة مثله الاعلى بمواهبه وذكائه .

فلئن قدر لتلك الاضطرابات أن تعاود سيرتها كلما دعى الشعب لانتخاب الخليفة ، إذن قل على مستقبل العرب السلام بل قل مثل هذا القول على مستقبل الاسلام . فكيف كان يمكن

لتلك الفتوحات الحديثة أن تقاوم تلك الانقلابات القائمة على منازعات الفاتحين وتألبهم على بعضهم. وكيف كان يمكن أن يستقر الأمن فى تلك البلاد التى أخضعت ويهدأ روع تلك الشعوب التى نشرت تعاليم الاسلام فيها، اذا كان ذلك الاستقرار معدوما بين اولئك الذين أضحوا بحق الفتح حكاما.

كانت فتوحات العرب شاسعة حتى لقد تناولت أكثر من نصف الامبراطورية الرومانية. أجل ولكن العالم لم يكن ينتهى عند حدها. فهناك بلاد بعيدة تقع فيما وراء البحار الغامضة لابد من غزوها وتعديلها ونشر الاسلام فيها. وهناك أيضا بيزنطة التى كانت تقف فى وجههم كهدفهم الاسمى. بيزنطة. أعظم امبراطورية فى ذاك العهد وأسمى غاية طالما طمحت اليها أحلام غزاة العرب وحلم معاوية وبغيته السامية.

على أن كثيرين هم اولئك الذين كانوا ينافسونه عسى أن ينالوا لأنفسهم ما كان يسعى أن يناله وحده، انه يريد - مهما كلف الامر - أن يحل تلك المعضلة ويشل كل المطامع الحالية والمستقبلة بتركيز الحكم بين افراد اسرته. ففكرة تأسيس مملكة وراثية مطلقه كانت تشغل باله وتتلألأ أمام انظاره فتسحره

كان حزبه قويا وأنصاره عديدين وكان هو من جانبه ينعم

بحب الشعب ذلك الحب الذى ازداد يوم فتح بحد السيف أرمينيا وقبرص ورودس .

كان بنو أمية بفضل سلالتهم الارستقراطية المنحدرة منذ أجيال عدة يطمحون الى السيطرة على غيرهم من بنى قريش وهذا ما كان سببا فيما مضى فى إراقة أنهار من الدماء ومنازعات شتى . فقد كانت تلك الاسرة تمثل دولة بما لها من الامتيازات وما يبدو على رجال عشيرتها من عظمة وجاه . لاشك ان الاسلام فى فجره قد خفف كثيراً من عنت بنى امية « اعداؤه الاول » يوم حطم الاسلام أصنامهم وتماثيلهم .

لقد أسلم ابوه ابو سفيان لينقذ حياته بعد أن رأى أن الدهر قلب له ظهر المجن وان الكعبة لم تعد تأوى ثلاثمائة وثلاث وستين دمية وصنما .

ولكن معاوية الذى نعته المؤرخ « كورتيللون » فى مؤلفه « تاريخ الانسانية الاجتماعى « باسم السيد العظيم الكافر الذى كان يشرب النبيذ جهارا ويدلى بآراء وهمية محاولا ان يلقى الشك حول ايمان مؤسس الدولة الاموية واخلاصه لدينه على الرغم من انه كان مسلما كل الاسلام قلبا وقالبا » .

فسواء اكان بنو امية مسلمين ام وثنيين فان الدم الذى كان

يسيل فى عروقهم وفى عروق معاوية كان من أعرق وأنبل دماء بلاد العرب .

لم يك يخشى أن يقف فى وجهه إلا بنو هاشم فهم ليسوا دون بنى أمية حسباً أو نسباً ومثلهم يفخرون بحقهم فى الاقدمية خصوصا وان هناك منافسات قديمة العهد مرت بها الاجيال ووقفت بمطامعها فى وجه مطامع بنى أمية .

لم يكن من يمثل بنى هاشم الا سلالة عباس بن عبدالمطلب ولم يفكر عباس فى حياته فى الملك بقدر ما كان معاوية يفكر فى أن ينادى بنفسه ملكا . ولسوف يفكر أعقاب عباس فى ذلك عندما يبعدون بنى أمية عام ٧٥٠ ليحكموا بدلا منهم . فلئن ظل خالد بن الوليد حياً فلا شك فى أنه كان يمكن أن يكون منافسا قويا لما كان عليه من صلابة الرأى والحزم وما يتمتع به من بهجة فتوحاته ، ولكن خالدا لم يكن ، وكان بين العرب الآخرين بعض المشغوفين بالمعارضة ولقد عارضوا فعلا ولكن بدون جدوى ، لا شك فى أن معاوية كان يرى فى نفسه سيدا آمراً مطلق السلطة ليس له أن يقدم حسابا عما يفعله الا لربه وانه كان يشعر من نفسه بأنه خليق بأن يخدم قضية ايمانه اكثر مما لو كان سيداً منتخبا لعدة امم متحدة ولكن تحت رحمة الشعب

وتقلباته . على أن معاوية كان ماهرا لبقا فلم يتسرع فى تأسيس مملكة بين شعب مرهف الاحساس كالشعب العربى حيث كان الخنجر يحول كثيرا دون تنفيذ أجرأ الخطط واحكمها .

ففى فجر عام ٦٦٢ بدأ بتنظيم حرس لحراسته ليل نهار واتخذ من دمشق مقراً لأقامته حيث شاد قصراً بديعا شامخا نقل اليه نظام التشريفات المتبع فى بلاط « السسانيين » ثم أوجد نظام الحجاب الخ . . . ولم يلبث ان تظاهر بعجز أصابه فى ركبته نتيجة جرح قديم فكان يستقبل وهو جالس على مقعد مرتفع هو فى الواقع عرش . أما فى تنقلاته فكان يحمل داخل هودج يحيط به حرس فاخر فى حين انه كان يرتدى لباسا بسيطا يتعارض تماما مع ماكان عليه أفراد حاشيته من جاه وثراء أما مقابلاته فكانت رمزاً للدهاء والعظمة .

وفى عام ٦٦٦ بدأت مسألة الوراثة تشغل كل افكاره . ولكنه حلها بأبسط الامور وأدهشها فابتدع لابنه يزيد الملعون لقبا جديداً غير معروف عند العرب وهو « ولى العهد » وطلب من جنوده أن يدينوا له بيمين الطاعة والاخلاص . ولكن كبار العشائر فى مكة والمدينة أبوا أن يحلفوا مثل هذا اليمين .

كان هذا العمل يتعارض مع التقاليد الاسلامية ولكن

معاوية تجاوزها واحتج الجميع ولكن واحدا لم يقف حائلا دون تنفيذ مشروعاته فظلت تسير سيراً طبيعياً نحو تأسيس المملكة .

هكذا انتقلنا من عهد الرؤساء المنتخبين الى عهد « اولياء العهد » فى الملك والورثة الشرعيين ، كما انتقلنا من عهد الجمهورية الديمقراطية الاشتراكية الى عهد الامبراطورية العربية المطبوعة بطابع الاوتوقراطية البيزنطية . وهكذا حل الوشاح الدمقسى محل العباءة المتواضعة التى كان يرتديها الخلفاء الاولون .

وبذلك وضعت مبادىء المملكة الامبراطورية الاسلامية وتأسست مملكة الامويين .

انه لا يحق لنا التفضيل بين شخصيات تاريخ شعب وتمييزها على غيرها كما لا يمكن ان نحول دون اعجابنا بتلك اللباقة التى دافع بعضهم بها عن قضيتهم حتى ظفروا بمطامعهم خصوصا اذا كانت تلك المطامع تمتزج بتاريخ شعب وعظمته . تلك كانت حال معاوية بن أبى سفيان .

ان الدم الطاهر لشهداء كربلاء العظماء عندما لطخ يزيد فاض ظلما على معاوية اذانه كان بعيداً كل البعد عن تلك المأساة المؤلمة الرهيبة لانه مات فى الرابع عشر من شهر رجب سنة ٦٠ (١٨ أبريل سنة ٦٨٠) فى حين ان مذبحة كربلاء وقعت فى العاشر من

شهر محرم عام ٦١ (١٠ اكتوبر سنة ٦٨٠) اى بعد ثمانى شهور لموته . وهكذا تكون قد وقعت خلال حكم ابنه يزيد الاول .

ومع ذلك اذا كان اسم يزيد — الذى لا يجسر أحد أن يدافع عنه وظل سبة لجميع أجيالنا الاسلامية — قد سبب الفظائع التى لطخته فانا لا يسعنا الا ان نتساءل لماذا احيطت ذكرى أبيه بذلك الشك الظالم .

وطفر الاسلام طفرة جديدة بعد معاوية وفى ظل المملكة التى أسسها .

ان الحرب الخاطفة ليست وليدة اليوم فقد مارسها العرب بنجاح منذ نيف والف عام وانك لسوف ترى ذلك عيانا اذا ما رافقت معى زحف تلك الجيوش الجديدة الساحق .

ففى عام ٧٠٦ فى عهد الوليد الأول خامس خلفاء الامويين وحفيد معاوية لاخيه نشر الفتح الاسلامى اجنحته .

شعر الوليد بضيق مملكته به على حد تعبيره فسعى الى توسيع امبراطوريته وامتدت جيوشه حتى حازت بلاد « التيبت » وسارت الى حدود الصين . فى نفس الوقت الذى غزا فيه جيش عربى آخر بلوخستان وبلاد الافغان واجتاح البنجاب مندفعا نحو نهر « الجانجوس » حيث استقر . وهكذا

لم يمض عشرون عاما حتى كانت الولايات الاسلامية الخاضعة لخلفاء الشام تعج فى شمال الهند وغربها.

واكتشف رحالة من العرب شواطىء الهند الغربية من سورات الى بومباى ومن بومباى الى بانجالور وفيما وراء ذلك حتى ساحل بورما فمندالاى.

لعمرى انا لنسائل أنفسنا فى كثير من الدهشة كيف استطاع اولئك الرحالة ذوى الارادة الحديدية فى عصر لا يعرف الصلب ولا البخار وسرعة الحركة الميكانيكية، ومع ما لديهم من الوسائل المحدودة أن يخوضوا تلك البحار الرجراجة فى قوارب نحيفة لو لم يكن ميلهم للفضاء الفسيح وشجاعتهم يجدان ما يؤيدهما فى تعاليم ايمان قوى يدعو إلى التضحية.

حقا أنهم كانوا يسيرون فى محازاة السواحل ولكن المسافات التى كانوا يجتازونها كانت عظيمة تدعو الى الاعجاب. فهناك المحيط بما فيه من مفاجآت رهيبة وأعاصير فجائية قد يبتلعهم فى جوفه السحيق وقد يقذف بقواربهم على الصخور فتتحطم كثيرمنهم قد ضل وهذا أمر طبيعى لا بد منه وكثير منهم نجح فى النزول فى سواحل مهجورة حيث ظلت آثار نشاطهم وجرأتهم ومدنيتهم عالقة بتلك الارض النائية الغريبة.

ان تأثير العرب الذى لا زال قائما فى أيامنا فى تلك الجزر البعيدة من المحيط الهادى والمحيط الهندى لاحدي الادلة القاطعة على عبقرية استعمارهم .

وبعد مرور أجيال تبع البرتغاليون اولا ثم الاسبانيون فالهولنديون آثار الملاحين العرب الاول فى تلك البحار المجهولة وكان لابد لذلك الملك الذى يرغب فى « المجال الشاسع » من قواعد جديدة فى البحر المتوسط وهذا ما دعاه الى الاستيلاء على كريت وسردينيا وكورسيكا وجزر الباليار .

وفى عام ٧٠٩ أرسل حاكما على أفريقيا (مراكش) شيخا قوى الشكيمة هو موسى بن نصير وزوده بأمر فتح اسبانيا ولكن ابن نصير كان شيخا عتيا . فمن كان فى الستين مثله لا يستطيع أن يجعل من نفسه فاتحا على الرغم مما قد يكون متصفا به من النشاط وقوة العزيمة الا اذا كان ذلك الرجل قيصراً ولكن ابن نصير الذى دلل فى حداثته على كثير من المواهب الحربية القيمة لم يعد الا شيخا فانيا حاد الطبع كما يتبين لنا ذلك فيما يلى . ولذلك فانه سيعهد بدوره بهذه المهمة الى الفتى المقدام طارق بن زياد الذى حينما عبر البحر أحرق الاسطول تحفيذا للجند على عدم الردة والفرار وقال لهم كلمته الخالدة (ها أنتم أولاء

البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر . .) قال ذلك ليستميتوا حتى ينتصروا وقد حصل ذلك كما سيمر بك . فقد كان طارق سيد الفرسان وخير من قاد الرجال وألهبهم بعباراته الحماسية .

فى ابريل سنة ٧١١ سار طارق بن زياد على رأس اربعة آلاف عربى وثمانية آلاف من البربر وعبر المضيق وقفز — اذا صح هذا التعبير — على صخرة « كالبيه » التى أصبحت تحمل اسمه منذ ذلك العهد (جبل طارق) وجمع جنوده فى الجزيرة الخضراء وهزم الدوق « تودمير » حاكم الاندلس فى « كسيريس » وسار نحو اشبيليه .

وبعد ثلاثة أشهر أى فى شهر يوليو التقى طارق عند ضواحى « وادى البكاء » بقوات العدو الرئيسية .

ها هو ذا طارق امام رودريك ملك الغوط الذى حشد جميع قواته مع من انضم اليهم من بقايا جيش « تودمير » وقوات الدوق « أوباس » الجديدة وكذلك رماة النبال الاراغونيين التابعين لدوق « ويتيزا » فتألف من جميع اولئك جيش يقدر بثلاثين الى ٤٠ ألف رجل تقريباً [1] . وكانت الموقعة تنذر بحرج

---

(١) عندما هزم الدوق تودمير حاكم الأندلس لاول مرة فر هاربا الى أشبيليه وابلغ

موقف طارق أمام قوات العدو العظيمة المتفوقة .

ولكن جحافل الغوط كانت مثقلة بالسلاح تتحرك ببطء أمام الفرسان العرب الخفيفة المرنة . وكان الاراغونيون مهرة فى استعمال الدبوس والفأس الا انهم كانوا لا يحسنون تسديد النبال فى حين ان نبال جنود البربر كانت سريعة كالبرق لا تخيب المرمى . على ان ذلك لم يحسن فى مركز طارق فقد كان الغوط أكثر عددا ومركز العرب سيئا مستهدفاً للخطر .

على ان طارقا اكتشف بنظره الثاقب فضاء من الارض فسيحا بين النهر وحدود غابة (سهل فيجير) وادرك بحنكته العسكرية ما لهذا السهل من ميزة عظيمة تساعده على ادارة الحركات بطريقة تمكنه من اخراج العدو من مواقعه بحيث يصبح النهر خلف ظهره . ولكن كان يجب عليه لذلك ان يتنقل بسرعة جنونية فائقة .

كان يعلم ان تلك الحيلة وحدها قد تضمن له النجاة وربما

ملك اسبانيا ماحل به فارسل اليه الملك جنوده المقيمين فى طليطلة ثم سار لملاقاة العدو على رأس قوات جديدة . وقد عسكر هذا الجيش فى سهل « فيجير ديللا فرونتيرا » بالقرب من الطرف الاغر وقد استغرقت المعركة بين الفريقين ثمانية ايام . وشجعت هزيمة اوباس وانجال ويتيزا جنود العرب وشحذت هممهم فحملت جموعهم (يوليو ٧١١) على رودريك الذى حاول ان يجتاز النهر بدرعه واساحته فغرق ولم يعثر على جثته (تاريخ العرب — للمسيو كليمان هيوارت — الجزء الثانى) .

النصر وكل ذلك كان موقوفا على سرعة حـــركاته . كان طارق جريئا فغامر بكل ما لديه فى سبيل الوصول الى ما يريد فتظاهر بالهرب فخيل الى الغوط أنه تخلى عن القتال وتوهموا أنهم انتصروا وطاردوا بجموعهم القائد العربى الذى أدرك السهل الذى اختاره لينظم فيه فرسانه[1].

وبغتة قفل طارق راجعا وحمل على العدو بجموع فرسانه الذين كان يحركهم بتلك السرعة المدهشة التى تميز حركاته وهاجم العدو ودحر فرسانه المثقلين بالحديد وقد استولت عليهم الدهشة ودفعهم الى الخلف نحو النهر وظل العـــرب يضربون بالسيف بلا هوادة ولا شفقة فكانت المذبحة مخيفة رهيبة .

وفر الدوق « تودمير » مرة اخرى وقتل الدوق « اوباس » وهو يحاول أن يجمع شمل رجاله واخذ الدوق « ويتيزا » أسيرا . وسقط الملك رودريك عن جواده وظل يقاتل قتال الابطال — ولكن عبثا — فقد كان أمامه ذلك الفتى العربى الذى حالفه

---

(١) ورد وصف معركة « فيجير » فى تاريخ اسبانيا لعيسى بن مزاحم . ومما يروى عن هذا الاخير ان والدته « سارا » وهى كريمة الدوق اوليموند الغوطى لجأت الى دمشق عام ٦٨٥ فراراً من أخطاء عمها الدوق ارداباست واحتمت بالخليفة الأموى مروان الأول . فزوجها الخليفة من أمير عربى . وقد اشترك نجلها عيسى بن مزاحم الملقب « بابن الغوطية » فى حملة طارق بن زياد ووضع تاريخ فتح اسبانيا (تاريخ العرب — مكاتب اسكوريال) (٢) لابن الغوطيه

الحظ فقاد اثنى عشر الفا من رجاله الى النصر . وغرق رودريك وهو يعبر النهر .

واتجه طارق بعد ذلك نحو طليطلة واكتسحها . وحاول الغوط التعساء أن يقاوموه لآخر مرة عند مدينة « ايسيجا » ولم يفلحوا واستطرد طارق زحفه الساحق الى « ملقة » وغرناطة واستولى عليهما . وفى نهاية عام ٧١٣ كان قد استولى على اسبانيا بأسرها وضمها إلى امبراطورية العرب العجيبة .

وعلى الرغم من كبر سن موسى بن نصير أبحر إلى اسبانيا التى عين حاكما عليها فاستقبله طارق استقبالا حافلا ووضع بين يديه أسلاب الحرب ثم سار على اقدامه الى جانب جواد زعيمه عند دخوله طليطلة رسمياً . وكان أول عمل أقدم عليه ذلك الشيخ الكئيب عند استلامه زمام الحكم أن أمر باعدام جميع الاشراف من الغوط .

وهل تعلم بماذا كوفىء طارق على خدماته وانتصاراته ؟ ..
بصفعة على وجهه !!

ودبت الغيرة فى قلب نصير من انتصارات طارق وحب الشعب له . ففى ذات يوم أنحى عليه باللائمة أمام الجيش بأكمله وعزله من القيادة . وكان طارق طيعاً فلم يحرك ساكنا تحت

ذلك السيل من الاهانات ولكن الجيش اهتز لتلك الاهانة ودبت عوامل الثورة بين فرسانه ورجاله .

واندلعت ألسنة الثورة بعيداً حتى وصلت انباؤها الى الخليفة الوليد فاستدعى ذلك الحاكم الظالم وأقاله فاسترد طارق قيادته .

لاشك هناك فى قيام ثورات . فلم تخل اية فتوحات وخصوصا فتوحات العرب من ثورات ، وحتما تولدت خصومات وحشية بين مختلف حكام العرب فى اسبانيا . فتتابع الحكام دون عمل شىء إلا المنازعة فيما بينهم حتى عام ٧٢٠ ، وعندما عين الخليفة يزيد الثانى السمح بن مالك الخولانى حاكما على اسبانيا ، أراد هذا الأخير أن يتمم عمل الحاكم السابق ايوب بن اللخمى الذى غزا « ناربون » فسار بدوره وحاصر تولوز .

لم يك شك فى سقوط المدينة العظيمة لولم يصل الى نجدتها دوق غسقونيه بجميع قواته .

وقتل السمح فى المعركة التى نشبت على طريق رومانى قديم بالقرب من تولوز . ولذلك اطلق عل هذه المعركة اسم بلاط الشهداء .

لم يكن قد انقضى قرن على موت النبى (صلعم) - سنة ٦٣٢ - وها هو ذا الاسلام قد انتشر وأصبح عظيما .

على أن المأساة لم تبدأ الا بفتح اسبانيا وبعـــدها . ولم تستول هزة الذعر على الغرب المغموم الا عندما وطأت أرض أوروبا وخصوصا فرنسا فرسان العرب على ظهور جيادهم .

انى أريد أن أتحدث إليكم عن فتى يستحق بفضل أخلاقه الجامحة وشجاعته نبذة خاصة فى تاريخ فتوحات العرب هـــو عبد الرحمن الثقافى ، الأمير الاموى الذى طالما خلطـوا بينه وبين عبد الرحمن آخـــر أموى مثله تمكن بعد ثلاثين عاما أي عام ٧٥٠ من سلخ اسبانيا من العباسيين فى بغداد وأنشأ مملكة مستقلة بتأسيس أسرة الأمويين المزدهرة فى قرطبة .

ان عبد الرحمن هذا الذى سأحاول بسط تاريخه هـــو « عبد الرام » كما يذكره التاريخ اللاتينى وهو الذى قاد العرب فيما وراء شبه جزيرة اسبانبا عبر البيرينيه الى أجمل بلاد أوروبا وكاد يصبح ملكا على فرنسا .

الحديث التاريخي الخامس

غزاة العرب وفتوحاتهم (٢)

عبد الرحمن بن عبد الله (الثقافى)

— فتح مدينة « بوردو » — « أود »

دوق غسقونيا — فتح بازاس واوتان

وتور — موقعة بواتييه وشارل مارتل —

المجاعة وسبب الحروب الصليبية — البابا

اوربانوس الثانى — بطرس الناسك —

موقعة مالازجرد — البارسلان — الحرب

الصليبية الأولى

سأتحدث اليكم فى هذه المرة عن شخص جد عجيب حجبته يد الايام فظل مجهولا ومر به التاريخ حثيثا فبقيت صفحاته مطوية وتناولته الالسنة فخلطت بينه وبين سواه .

وأغرب من ذلك أن تاريخ الغرب لم يخلد من ذكراه الا ذكرى مروره بجحافله فى بلاد فرنسا الجميلة وأحاط هذه الذكرى بأمارات الذعر ، ثم لم يلبث أن تنفس الصعداء فرحا

مسروراً لموته الباسل وارتداد جيوشه كأن كابوسا قد زال عن صدره اثر حلم مزعج فظيع !

أما تاريخ العرب فقد واراه وذكراه تحت الرغام . واليوم لا يذكره أحد أو قل أن يوجد من يذكر هذا الفتى الذى صال وجال وجعل من التاريخ ميدانا لنزهاته الخرافية المجيدة .

فهذا الشاب سليل الاسرة الاموية الذى أرسله الخليفة عمر الثانى بن عبد العزيز الى اسبانيا عام ٧١٨ ليتدرب على الحروب أو ليشغله بعيداً عنه إذ أنه كان فى الشرق كثير الحركة بعيد المطامع ، على جانب عظيم من الثقافة . فقد كان ملما بكثير من اللغات الاجنبية كاليونانية واللاتينية ويعد حجة فيها فلقب بالثقافى [١]

على أنه لم يظهر على المسرح إلا غداة هزيمة وموت السمح بن مالك الخولانى فى مدينة « تولوز » (بلاط الشهداء) عام ٧٢١ إذ تولى عبد الرحمن قيادة تلك الجيوش المهزومة وعاد بها الى مدينة « ناربون » وبدت عندئذ عزيمته ومواهبه العسكرية فظهرت فجأة بعد انكسار سلفه فجعلت من هذا الفتى قائدا وقائدا

---

(١) هذا الأسم قليل الشيوع وهو مذكور فى الغالب فى التاريخ الغربي تحت هذا الاسم المشوه « الأمير عبد الرام »

محنكا يلم شعث جيش بأكمله ينظمه ويضم اليه وحدات جديدة ويدربها فى مدرسة الانتقام العاجل لتكون على أهبة العمل متى دقت ساعة مطامعه ونهضته .

وأدت تصرفاته المحنكة وحب الشعب له الى القيام باعباء حكم اسبانيا عام ٧٢٢ عندما اسنده اليه الخليفة يزيد الثانى . على أن رعاية عبد الرحمن للجيش وسخاءه على رجاله الذى كان يبدو منه تبذرا وان كان فى الحقيقة لا يعد تبذيرا وما كان يستحقه هؤلاء المجاهدون أكثر من ذلك - قد أثار حسد زعماء الجيش القدماء وحقدهم فتألبوا على الامير الجواد وتآمروا فيما بينهم عليه لقد وضعوا كرمه موضع التبذير وتسامحه موضع الضعف وذكاءه موضع الطيش فسعوا به الى حاكم افريقيا (مراكش) وكان هذا الحاكم يحسد هذا الاموى على حب الشعب له ويطمع فى مكانته فتمكن بفضل التقارير الكاذبة التى رفعها عنه الى الخليفة فى دمشق الى اقالة عبد الرحمن واستبداله فى حكومة اسبانيا بزعيم جديد هو ابن شهيم الكلبى .

كانت أخلاق حاكم اسبانيا الجديد على نقيض اخلاق عبد الرحمن فابن شهيم كان رجلا رزينا هادئا قاطعاً فى قوله ومتهاوداً ولكنه على الرغم من فضائله الادارية وعدله الصارم

وعلى الرغم من عطاياه الواسعة وتوزيعه الارض البور على الشعب على الرغم من ذلك كله لم يتمكن من استمالة الشعب اليه ولا من اكتساب ثقة الجيش به .

إن من الناس فئة كثيرة التقشف حتى لتصبح فضائلها مدعاة للضجر والسأم ، وعلى الرغم من فضائلها النزيهة لا تحدث أى تأثير فعال فانها تدعو الى الاعجاب ولكنها لا تدرك ما تصبو اليه نفوسهم من الحب . تلك احدى سخريات القدر الغامض . ومع ذلك كله ظل عبد الرحمن معبود الجميع ، يمثل فى نظرهم صورة الزعيم الظريف الذى يتأجج سحرا وهذا السحر هو أيضا احدى سخريات القدر التى يتعذر تفسيرها . أضف الى هذا السحر ما حل به من ظلم من جراء اقالته وهذا ما زاد حب الشعب له وتعلقه به . فقد كان للشعب بمثابة شعاع من أشعة الشمس وقد انقشع الضباب عنه فحمل الى القلب المسرة والسعادة .

ولكن مما يؤسف له ان سحر تلك الشخصية سيحدث عكس ذلك التأثير فى غيرهم . . . ليس شك فى أن الطبقة الحاكمة أو الارستقراطية أو بتعبير أصح اذا شئت ذوى الجاه والعظمة كانوا لا يحبونه . لقد كان فى نظرهم بعيدا عنهم وأميرا أنانيا وانهم ليكرهونه لاقل من ذلك ، سيان عندهم أسف الدهماء والفقراء

والبؤساء والتعساء والعجزة على هذا الفارس الشاب الذى كان يتظاهر بينهم بتلك البساطة المتناهية ليشاطرهم ملاهيهم النادرة أو يستوضحهم عن متاعبهم ويؤاسيهم فى أحزانهم . والذى كان ينساب فى مسكن من أصابه الدهر بسوء ليعزيه فى مصابه ويترك دون أن يشعر به احد ما يحمله فى عفاصه . ولسوف يأسف المسيحيون عليه أيضا لصراحته وتسامحه وعدالته ، واليهود للاعمال التى سدت فى وجوههم بابتعاد هـذا الامير المسرف فى نظرهم وبذخه .

أما الجيش فلن ينساه أبدا ، فقد شاطره جميع مسراته كما شاطره متاعبه وحرمانه فى سيره المضنى الطويل اذ كانت الدماء تتجمد على الجروح والتعب ينهك المفاصل ويحطم الاجسام .

ورافق حب الشعب عبد الرحمن فى عزلته وبدا للعيان جهاراً فتناوله الشعراء بقصائدهم يمتدحونه . وملأ القصصيون مخيلات الشعب بحوادثه ومغامراته واحاطوها بهالة من المغالاة والتعظيم والشعب كما نعلم يميل الى أعمال البطولة كما يحنو على من مسه الدهر بسهامه .

سواء أكان ذلك صحيحا أم لم يكن فسماع القصائد التى تصف ، بموسيقاها الموزونة ، الاحلام الخرافية كان مستملحا

محبوبا .

عبثا حاولوا أن يمنعوا مثل تلك المظاهرات الادبية ، فان ذلك لم يحل بعض الايدى المجهولة دون كتابة اسمه على جدران المبانى وغيرها ، بينما كانت القصائد الهجائية تلصق على جدران قصر الحاكم الجديد .

وقام خلفه ابن شهيم بعمليتين ناجحتين عند سفح جبال البيرينيه ثم استأنف حملاته من ناحية أخرى فغزا ضفتى نهر الرون من مدينة « أرل » حتى مدينة « ليون » . وفى يوم من عام ٧٢٥ أراد ان يجتاز النهر . أصابه سهم أرداه قتيلا . لم يكن من السهل استبداله . فقد تناوب الحكم بعده أربعة رؤساء ولكنهم أقيلوا حتى عين الخليفة حاكما على اسبانيا من لدنه يدعى عبد الكافى ، لم يقع هذا الاختيار موقعه الحسن . فقد كان عبد الكافى جشعا محبا للمال قاسيا فبغضه الجميع ونقموا عليه .

وفى عام ٧٢٧ ابلغ ضحاياه شكواهم للخليفة الجديد هشام الاول فأوفد من لدنه رسولا وزوده الامر بالتحقيق ومنحه السلطات الكافية لايقاع العقاب بالمذنب الاثيم ، ويجدر الاعتراف أن هذا التحقيق قد اثبت ادانة عبد الكافى إذ قد حكم عليه بعقوبة مشينة . فقد ربطت ذراعاه خلف ظهره واجلس على حمار

سار به فى انحاء غرناطة يتبعه الشعب الذى طالما اضطهده صائحا ومهللا وشاتما. على أن الشعب لم يهتف فقط بسببه. فهناك اسم محبوب فى جميع انحاء اسبانيا من اكواخها الى قصورها الشامخة كان يتردد فى الفضاء ويردده شعب بأسره يطالب بعودة محبوبه عبد الرحمن. فاخرج عبد الرحمن من عزلته فى اقاصى «الاسترامادور» وعاد الى غرناطة.

يقول «هيوارت» المؤرخ الفرنسى انه كان لابد من وجود حاكم فأعادوا عبد الرحمن بين تهليل الشعب وتكبيره الى المنصب الذى طالما ملأه بكفاءته ولم يحرم منه الا ظلما وعدوانا وقضى هذا الامير المبذر اربع سنوات ليصلح ما فاته ويعيد النظام الى نصابه. فتناول الجيش وأعاد تنظيمه وتدريبه وأعد حملة فجمع السلاح وجهز هذا الجيش الذى كان يحتاج اليه لتحقيق أغراضه إذ كان لعبد الرحمن مطمح ثابت كما كان لكل الامويين مطامح مثله.

لم تنجب أية أسرة أخرى غير أسرة الامويين رجالا بمثل ما كان عليه رجالها من الطموح وشدة العزيمة والاغراض السياسية الواسعة والآمال الجريئه الوثابة. كانت دماء هذه الاسرة النبيلة تجرى حارة فى عروق عبد الرحمن. فلم تفت عزلته من

عزمه بل زادت نيران مطامعه اضطراما فى صدره فاستسلم لحلمه
الجميل وأخذ يداعبه طويلا . لقد كان يرغب فى بسط سيطرته على
فرنسا ويود لو أنه استطاع ضمها الى اسبانيا لينشىء منهما
امبراطورية مترامية الاطراف ويالها من امبراطورية !

فاذا ما حانت سنة ٧٣٠ ووقف عبد الرحمن عند سفح جبال
البيرينيه الشاهقة وتوهم فى طفرة من الحماس ان ليس فى تلك
الجبال « الا حاجزا يسهل عليه اجتيازه » اذ ذاك زالت تلك العقبة
من وجهه ولم يعد لجبال البيرينيه أى أثر فى نفسه . حقا بان
هناك (بواتييه) ولكن بواتييه كانت لا تزال بعيدة نائية . . .

كان لا بد له من أربعة أعوام لاعداد الحملة ؟ . . قد تعترضون
على بأنها كثيرة أو ربما قلتم بأنها قليلة غير كافية للقيام بمثل تلك
المغامرة العظيمة .

الحقيقة ان فرنسا لم تكن فى ذاك العهد دولة بل ولم تك أمة
متجانسة متمدينة . لقد كانت مقطعة الاوصال مجزأة الى عدة
دوقيات وإمارات . فضلا عن أنها كانت فريسة لحروب غير
منظمة يثيرها تنافس امرائها ومنازعاتهم المستمرة . وكان الشعب
يرزح تحت اعباء نظام الاقطاعيات واستبداد كهنة جشعين على
جانب عظيم من السطوة وشدة البأس ، لم تكن فرنسا تتمتع

بأى نظام متناسق الى ما بعـــد شارلمان العظيم كما كانت تنقصها أسباب الطمأنينة والأمن . وظلت الحال على هذا المنوال حتى القرن الخامس عشر اذ تولى السلطة لويس الحادى عشر فاستطاع بحنكته ومكره أن يكون من تلك الاقطاعيات وطنا قوميا متحدا .

لم تكن فرنسا فى القرن الثامن غير ظل ضئيل لما تبدو عليه الآن من التمدن والرقى ولم تكن هى فرنسا التى تعاقبت عليها أجيالنا ووقف على مدى عظمتها أكثر من واحد منا وأحبها وأعجب بها وافتتن بسحرها وتأثر بثقافتها وحضارتها .

لم يكن امراء فرنسا كذلك الا بمثابة برابرة غليظى الطباع ليس للثقافة معنى فى نظرهم بل كان أغلبهم أميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة . ولم يكن أمراء لومبارديا وغسقونيا واكيتانيا وانجيفان وبيكارديا ونورمانديا الذين كانوا يتنازعون باستمرار فيما بينهم ويشهرون السلاح فى وجه ملوكهم . يعدون شيئا يذكر ، على أنهم كانوا على رأس قوات مسلحة هائلة . محصنين خلف قلاع منيعة تعجز عن دكها هجمات المغيرين ، أضف الى ذلك ما كانوا يتمتعون به من المواهب الحربية وما كانوا يشعرون به من الذعر الذى خلفه فى قلوبهم جوار السراسنة لهم والنتائج التى قد تسفر عن غزوات هؤلاء السراسنه لبلادهم . أما هذا الذعر

الذى لم يفارقهم لحظة واحدة فقد ضاعف فى شجاعتهم وحملهم على القتال قتال الابطال والدفاع عما يملكون دفاع المستميت .

لقد غزا العرب قبل مجىء عبد الرحمن بلاد فرنسا التى طالما تاقت نفوسهم اليها واستولوا على « ناربون » « وكركاسون » ثم « نيم » وقد تمكن الكونت دى تولوز باعجوبة من وقف الغزاة السابقين من العرب فى وادى « دوردونيه » ولكن لأمد قصير فلم تلبث أعلامهم ان شقت طريقها مندفعة الى الامام فى وادى الرون حتى بلغت « آرل » « وامينيون » ثم « ليون » و «بوم» وفى النهاية خفقت فوق حصون سانس .

على ان الحالة مع عبد الرحمن كانت أشد خطورة . فلم تكن حملته عبارة عن غزوات بل حملة منظمة يتدفق عليها بلا انقطاع سيل النجدات التى كانت تشمل فرقا بأكملها [1]

حاول عبد الرحمن ان يعاود السير فى طريق تولوز ، على ان رجلا آخر طموحا كان يقطع عليه هذا الطريق وهو عثمان بن ابى تزاعة قائد القوات التى عهد اليها فى المحافظة على البيرينيه ومما يروى عن هذا القائد الذى كان يريد ان يؤسس لنفسه إمارة مستقلة انه ذهب ضحية شرك نصبه له دوق غسقونيا اذ زوجه من

---

(١) لم يستطع المؤرخون ان يحددوا عدد هذه الفرق بالضبط .

ابنته لامبيجيا عسى ان يضع حدا لمطامعه ويجعل منه حليفا له كان عثمان بن أبى تزاعه باقترانه من كريمة دوق غسقونيا يعتمد على مساعدة ابى زوجه وتأييده له، بعد ان نسى عبد الرحمن وبمين الطاعة الذى حلفه بين يديه . على ان طلائع جيش عبد الرحمن لم تلبث ان ذكرته بيمينه فى موقعة « الباب » (بويسيردا) حيث هزمته واضطرته الى الفرار « وقد فوجىء عثمان فى أثناء فراره بالقرب من نافورة . ولما رأى زوجه لامبيجيا تقع فى أيدى الغزاة القى بنفسه فى هوة سحيقة وقضى نحبه »[1] !

ولم تكن تلك الخيانة الوحيدة التى وقعت فى اثناء حملة عبد الرحمن كما أنها لم تكن الاخيرة اذ قد أعقبتها خيانات أخرى .

وبعد انقضاء تلك الفترة احتل عبد الرحمن « بايون » وأوش » ثم « بازاس » وكان دوق غسقونيا يتعقبه عن كثب وحاول عبثا ان يوقف تيار جحافله امام « بوردو » التى كان يتولى الدفاع عنها دوق اكيتانيا .

كانت مدينة « بوردو » المحاطة بسلسلة من الأسوار الرومانية العظيمة قلعة منيعة وقد زادها مناعة ما اضافه اليها أهالى

---

(١) الجزء الثانى من تاريخ العرب لكليمان هيوارت .

اكيتانيا بدورهم من وسائل التحصين ، وقد دارت فيها رحى المعارك عنيفة أربعة أيام متتالية ولكن بغير جدوى ، فقد استولى عبد الرحمن على المدينة عنوة على الرغم من استبسال المدافعين عنها وبطولتهم واحتل العرب المدينة واقاموا فيها .

لم يعد لدوق اكيتانيا بعد سقوط « بوردو » ملك يدافع عنه ، على أنه كانت لديه أخت فى استطاعته أن يضحيها على مذبح مطامعه فاسرع فى تقديمها الى عبد الرحمن ! كانت شقيقته جميلة رائعة الجمال . لقد شغف عبد الرحمن بجمالها وتودد اليها ولاطفها ولكنه لم يستسلم لها ، كان يقدر ان وقته قصير وأن فى وسع أية امرأة ان تنتظر أما المطامع فكانت فى المقام الاول لا تحتمل انتظارا ولا تأخيراً .

والآن يبدأ عبد الرحمن نزهته وتجواله اذ أنه سيتنزه خلال فرنسا المجهولة من الجنوب الى الشمال . لسوف يجتازها محاربا يرفرف علمه تحت سمائها . ولسوف يجتازها شاعراً مترنما بجمال غياضها وحالما بما خلفته فى نفسه من سحرها وبيانها متغنيا بأوهامه المتناثرة ، إذ أن ما كان فيه حلم ولكن تصوروا أنه حلم يملأه السلاح وطعنات تحطم الاوصال . فهذا الحلم بما فيه من

سحر سرابه الذهبي - يبدأ عند عبد الرحمن وفرسانه باجتياز سهول بورغونيا وهضابها الناضرة. لقد اجتازها وجنوده على أصوات المزمار وقرع الطبول تفيض وجوههم بما تكنه صدورهم من نشوة وفرح، ثملين بما أحرزوه من انتصارات وما وصلت اليه أيديهم من أسلاب وما تطمح اليه نفوسهم من آفاق جديدة وآمال.

وكأن الطبيعة قد دعتهم الى أفخم ولائمها. وكأن الربيع أراد أن يرحب بمقدمهم فارتدى أجمل حلله وتجلى فى أبهى محاسنه.

وقد اجتاز المئات والالوف منهم طرقات فرنسا واخترقوا غاباتها الكثيفة ووطأوا بقاعها المزدهرة وساروا فى وديانها الضاحكة حتى لكأن قطعة من السماء أو ركنا من الجنة قد رفرف فوق هذه الوديان ثم استقر بين جوانبها وعلى ضفاف الأنهر حيث ترقرقت قطرات الينابيع الصافية كأنها عبرات تسيل من مآقي حسناء يضطرم فؤادها بنار اللوعة والأسى.

فاذا ما أرخى الليل سدوله وحل بالاكواخ النائية التى هجرها سكانها ضرب العرب أطنابهم وأوقدوا نيرانهم وحينئذ ترتفع صيحات الفرح من أعماق صدورهم وتقف الأسيرات

الشقراوات ذاهلات ينظرن الى هؤلاء الفرسان الذين قدوا من الصخر وقد تحولوا الى شعراء يتفننون بما يسلب العقل ويذهل اللب

واجتاحت تلك الجحافل البلدان والقرى واحدة إثر واحدة وصهلت جيادهم فرحا ورقصت طربا على صليل الاسلحة وبريق الرماح وفى فيأة الاعلام التى تخفق مع الريح .

واذا حاول بعض الامراء بجحافلهم الثقيلة ان يعترضوا سبيلهم فسرعان ما يشتتون شملهم . وكان يبدو ان ليس هناك ما يستطيع الثبات فى وجوههم أو مقاومتهم سواء أكانوا رجالا أم حصونا أم قلاعا . فقد كانوا يكتسحون كل شىء أمامهم ويحطمون كل شىء فى اندفاعهم . ثم يستأنفون سيرهم على ظهور جيادهم المطهمة السريعة دون ان يعترض سبيلهم أحد .

كانت المدن تسقط وتنهار أمامهم على الرغم من أسوارها المنيعة وأبراجها المحصنة وجدرانها السميكة والخنادق المليئة بالمياه الآسنة اللزجة التى كانت تحيط بها .

ها هى ذى مدينة « أوتان » تبدو بأسوارها المزدوجة وقلاعها الشامخة كأنما هى تستخف بأشد الهجمات عنفا وهولا وكان المدافعون عنها لا يشكون فى مناعتها فاخذوا يعدون العدة لحصار طويل أو دفاع عنيف . ولكن فرسان العرب

هجموا عليها بصفوفهم المتراصة فاهتزت الارض تحت حوافر جيادهم وانهارت الابواب تحت قوة ضغطهم واندفاعهم . وقد نالت النبال من المئات منهم . ولكن من بقى منهم على قيد الحياة تخطى جثث القتلى وتدفقت جموعهم كالسيل الجارف فى قلب المدينة . كان أنين الجرحى وحشرجة الموتى يسمع فى الازقة والطرقات التى تكدست فيها جثث القتلى وتناثرت أشلاؤهم واختلطت بجثث جيادهم المبتورة . وتعالى الصياح والصراخ حتى اهتزت له أجواء الفضاء فطغى على صليل السيوف والرماح وعويل النساء ! . . لقد استولى العرب على المدينة .

وفى أوتان غادر الرهبان ديرهم الشهير وفروا هائمين على وجوههم أمام هؤلاء الذين كانوا يطلقون عليهم اسم « ابناء الشيطان » وما هى الا بضعة أيام حتى عاد أولئك الرهبان الى المدينة المحتلة ولكنهم لم يصدقوا ما وقعت عليه انظارهم وما سمعته اذانهم وتملكت الدهشة اسقفهم عندما سمع عبد الرام (عبد الرحمن) يقول له باللغة اللاتينية الفصحى انه لا يريد سوءا باهل الكتاب وانه لن ينال أحد منهم — من الشيخ المهيب الماثل أمامه حتى أحقر راهب بينهم — سوء سواء منه أو من أحد جنوده . وعليه أمر الأمير المسلم بأن ترد الى الرهبان كؤوسهم الذهبية

وصلبانهم وكتبهم المقدسة ومباخرهم وشمعداناتهم وملابسهم الكهنوتية المطرزة بالذهب والفضة واخيرا ديرهم وقد رد اليهم سليما .

وانا لنتساءل لماذا لم يسلك عبد الرحمن مثل هذا المسلك مع دير القديس مارتان العظيم فى « تور » ؟ فقد اختار منه أندر المخطوطات وأرسلها الى مدينة « بوردو » ومنها اتخذت طريقها الى اسبانيا . وقد حدث ان ثارت ثائرته واستشاط غضبا فحطم جهازات التقطير أمام الرهبان المذعورين ولكنه لم يتطاول على أى واحد منهم أو مسه بسوء .

وعندما وصل عبد الرحمن مدينة « تور » كانت الحقائق المؤلمة فى انتظاره فاصطدم بها واستيقظ من حلمه الرهيب وتحطمت آماله .

فعند « تور » اختلف قواد جيش عبد الرحمن بسبب توزيع الاسلاب وبعامل المنافسات الشخصية وبدافع من طبيعتهم الشرهة وتنازعوا فيما بينهم . لقد أرادوا ان يقتطعوا لأنفسهم الاقطاعيات فى البلاد والمدن التى افتتحوها اذ أنهم قد قدروا أن قوات الاعداء على الرغم من وفرتها لم تفلح فى مقاومتهم طويلا ولذلك كان فى استطاعتهم أن يعدوا انفسهم ظافرين

وبالتالى كان لهم الحق ، وهم غالبون ، فى حصتهم من الغنيمة تلك مع الأسف هى القصة القديمة التى كانت تتجدد بتجدد الغزوات التنافس بين الزعماء ، كانت تلك الاعتبارات الشخصية كثيرة ووخيمة العاقبة عند العرب الذين كانوا — بدافع من استسلامهم للقدر — يضعون مصالحهم واعتباراتهم الشخصية فوق مصلحة الجماعة وفوق تضامنهم الكلى ولقد طالما كان ذلك أساسا لخرابهم .

لقد كانوا يحتدمون عند مناقشتهم حتى ليصل الغضب فيهم الى القمة ويدفعهم ضد بعضهم فيتبارزون ولا تستقر الحال بينهم الا والعاقبة وخيمة . وساءت الحال شيئا فشيئا وتكررت تلك الحوادث المؤلمة بينهم وعميت أبصار البعض منهم حتى دبت الهزيمة فى صفوفهم وهكذا بينما كان الظافرون يتناوشون حول غنيمة لم يتم اقتناؤها كان للمغلوبين حظ وافر فى لم شعثهم وضم صفوفهم واعداد انتقامهم بجمع قواتهم وهذا ما حدث فعلا .

واتسع الوقت أمام « اود » دوق غسقونيا والاكيتانيين ليضموا قواتهم الى الفرنجة تحت قيادة شارل مارتل نجل « بيبان ديريستال » فقد كان وحده بين الفرنجة ذا بأس وشهامة ووحده أيضا بين امراء المسيحيين الذين تملكهم الرعب عقب غزو

عبد الرحمن ، من حافظ على ثباته ورباطة جأشه ليدافع عن بلاده وشعبه .

ففى عام ٧٣٢ عندما التقى عبد الرحمن بجيش شارل مارتل وحلفائه على ضفاف نهر « بوافر » بين « تور » « وبواتييه » لم يكن لديه ما يواجهه به غير جيش ضعيف مفكك الاوصال تؤيده فصائل بديعة من الفرسان وهى الفصائل التى دافعت عن قائدها حتى اللحظة الاخيرة وانخذلت قواها معه وانهارت الى جانبه .

مر اليوم الاول على معركة « بواتييه » الدامية التى تعد من أشهر معارك التاريخ دون أن يسفر عن أية نتيجة حاسمة . على ان القتال المروع استؤنف رهيبا مع فجر اليوم وابتسم الحظ فيه لعبد الرحمن ، ولكن ما أن مال الغسق حتى خانه ذلك الحظ اذ أقبل « أود » دى غسقونيا الذى هزم فى « بوردو » وتمكن فى آخر لحظة وبحركة التفاف بديعة تدل على الدهاء والذكاء من انقاذ شارل مارتل من هزيمة مؤكدة . وهكذا سقط عبد الرحمن خائر القوى وقد نالت منه السيوف مقتلا فقضى نحبه وتلاشت معه آماله وأحلامه العظام .

وقد قال المؤرخ الفرنسى « هيوارت » ان عبد الرحمن سقط مثخنا بجراح الحراب وهو يحاول ان يجمع شمل جنوده

وقد تركوا ميدان القتال وأسرعوا للدفاع عن معسكرهم الذى هاجمه الاكيتانيون . ولكن حركة الالتفاف التى ابتدعها أود » دوق غسقونيا وموت زعيمهم عبد الرحمن هى التى حملت العرب وأرغمتهم على الانسحاب بسرعه (اكتوبر ٧٣٢)

تصفحوا الآن أحد كتب التاريخ وطالعوه فانه قد يذكر لكم أن شارل مارتل سحق العرب بقيادة عبد الرام عام ٧٣٢ وانقذ الحضارة والغرب من الفتح الاسلامى . . .

اما ان شارل مارتل قد أنقذ فرنسا من الفتح العربى فهذا صحيح واما أنه انقذ الغرب وحضارته من الفتح الاسلامى فليس لهذا القول نصيب من الصحة ، اذ لم تكن للغرب حضارة حتى يمكن انقاذها . فقد أجمع مؤرخو الغرب على الاعتراف بذلك وهم يفيضون بذكر الهمجية التى كانت تسود اوروبا الى ما بعد القرن الثامن ، فأين هى اذن تلك الحضارة التى يقال أن معركة « بواتييه » قد انقذتها . واستطرد مؤرخو اوروبا وأشادوا بصراحتهم المعهودة بذكر حضارة الغرب المزدهرة وأتوا على وصف ثقافتهم المتلألئة ثم اعترفوا بان الغربيين قد تقاطروا فيما بعد على مناهل العرب واستقوا منها الأساليب اللازمة لانشاء حضارتهم .

أما قوة العرب الهائلة فلم تكن لتتأثر بمعركة ضروس أو هزيمة شنعاء كهزيمة « بواتييه » مهما كانت العوامل أو الوسائل أو الظروف المجهولة التى أدت الى انتصار الفرنجه فيها .

فعبثا حاول شارل مارتل أن يسترد مدينة افينيون وينتزعها من قبضة العرب ولكنه فشل تحت أسوارها عام ٧٢٧ . وفى عام ٧٥٥ أخضع العرب بلاد الباسك واستردوا بامبيلون واجتاحوا النافار . ولولا الكارثة التى حلت بالبطل المغوار « رولان » فى وادى « رونسوفو » فى عهد شارلمان العظيم لما شعر أحد بوجودهم فى تلك البلاد ولا بالخطر الذى يهددونها به . فسوف يمكثون فى ايطاليا (صقليه) زمنا طويلا كما أنهم سيسيطرون على اسبانيا نيفاً وثلاثة قرون ، فبعد انهيار الامويين ومجىء العباسيين نجا شاب فتى من مذبحة المت باسرته وفر الى اسبانيا فريدا وحيداً لا صديق يرافقه ولا معين يعضده وفى رأسه فكرة تختمر وتتنازعه وهى فكرة تأسيس امبراطورية فى تلك المناطق النائية وقد تم له ما تمنى مما حمل الخليفة المنصور العباسى الذى انتزع هذا الشاب اجمل ممتلكاته وأروعها على القول فى ذهول واعجاب « حقا ان هذا الصقر من سلالة قريش » . لقد اتحدت كلمة اسبانيا بمجىء عبد الرحمن وخضع لأوامره عدد كبير من الامراء المسيحيين

وعاد الخطر من جديد يهدد كيان الغرب وملوكه .

أما السبب فى انهيار قوة العرب التى لن تدق ساعتها الا بعد زمن طويل فهو عدم ائتلاف طباعهم وانشقاقهم .

فمن ذا الذى سوف ينقذ اوروبا والمسيحية من سيطرة العرب العظيمة ونفوذهم الواسع ؟ هناك رجل واحد تمكن بذكائه الخارق وارادته الحديدية أن ينقذ أوروبا ولكن بعد مضى خمسمائة عام من ذلك التاريخ أى بعد انقضاء تلثمائة وخمسين عاما على معركة « بواتييه » الشهيرة وهذا الرجل هو « اود دى شاتيون » .

ففى الوقت الذى خلف فيه الامويون مكانهم للعباسيين فى الشرق وتركوا لهم امبراطورية واسعة وعبئا ثقيلا لحكمها وبينما تعاقب عشرون أميرا عباسيا على عرش بغداد — التى اصبحت عاصمتهم - دون أن يعودوا على العالم الا بمجد أدبى وعلمى زاهر لا ينسى ولكن دون ان يعودوا عليه بأى فتح جديد وبينما كان الفاطميون فى مصر يغرقون فى بحار دامية من جرائمهم واخطائهم ، فى ذلك الوقت كان عرب اسبانيا يضيئون بانوارهم أوروبا المظلمة التى اخذت تنتعش وتنهض تحت تأثير احتكاكها بهم وتسترد قواها وتصقل سيوفها وتستعد تحت جنح الظلام ولكن الغرب كان ينتظر شيئا ويرقب مثلا أعلى . فهذا الشىء

وذلك المثل الاعلى ستجده كنيسته له .

ففى اوائل القرن العاشر كانت الكنيسة تبدو لنا بمثابة دولة مستقلة موطدة الاركان تعمل لخير الجميع ومصلحتهم وتقوم بدور حلقة الاتصال بين افراد الشعب وبين سادة العالم الاوروبى وملوكه وأصحاب السلطان الدنيوى فيه .

وفى نحو عام ١٠٥٠ كان « أود دى شاتيون » راهبا فتيا من رهبان ديركلونى لم يتجاوز العشرين من عمره وقد رأى فى ذلك الوقت صديقه « إبل دى روسى » ينضم الى الفرسان الفرنسيين ويتخذ منهم طريق البيرينيه لاجلاء العرب عن اراغون ولكنه لم يعد . فعندما أصبح « أود دى شاتيون » عام ١٠٨٩ البابا أوربانوس الثانى جرد حملة فرنسية على طرق اسبانيا ولكن تلك الحملة لم تعد عليه الا بالنتائج المخزية التى أسفرت عنها سلسلة انكساراتها فبدت له عندئذ حالة الغرب المستهدف لخطر العرب الدائم دون مخرج من الهوة السحيقة التى سقط فيها . اذ ذاك بدأت فكرة الحروب الصليبية ترسخ فى ذهن « أود دى شاتيون » وأخذت تنمو فى عقله وتختمر عنده رويدا رويدا سواء أكان فى صومعته فى كلونى أم فى منفاه فى ساليرن أم فى قصره فى لاتران ، عندما القى هذا الناسك العظيم فى اواخر القرن الحادى عشر نظره مذعورا على

العالم وأخذ يتطوف ببصره الحاد فى أفقه البعيد .

وفى يوم ما عاد بعض الحجاج من الاراضى المقدسة يرافقهم راهب مجذوب تنم نظراته عن الخبل وهو بطرس الناسك وخليق بى أن اعترف بأن مظهر هذا الراهب المجذوب كان يشبه تمام الشبه مظهر أولئك الدراويش المولوية الذين كانوا فى عصر مضى يجوبون انحاء اسطنبول وهم يدعون الى الجهاد وينادون به .

عاد هذا الشخص الغريب الاطوار من الاراضى المقدسة وأخذ يروى قصص مغامرات خيالية ويختلق الاوصاف والاكاذيب عن السراسنة زاعما أنهم كانوا ينتهكون حرمة القبر المقدس ويأكلون اللحوم البشرية ويشربون دماء الاطفال المسيحيين فى ولائمهم ، كما كان يتحدث عن المسيحيين الذين يذيقهم السراسنة انواع العذاب وينوءون تحت ظلمهم واستبدادهم . وبشر هذا الناسك فى جميع مدن فرنسا والمانيا ووعظ فى جميع الاسواق والميادين العامة وفى قصور الامراء واكواخ الفقراء حتى ألهب الجماهير بمواعظه وخطبه الحماسية فمالت الى تصديق رواياته الخرافية وتأثرت بأقواله عندما حدثهم عن اعتداء السراسنة على الاماكن المقدسة فنادوا بالثأر . ولئن كان البابا

أوربانوس لم يصدقه بادىء بدء الا أنه وجد دعايته ماهرة وآل به الأمر الى استخدام بطرس الراهب فى سبيل تحقيق أغراضه ولا سيما أن الوقت كان مؤاتيا .

أما الغرب الذى لم تزل ذكرى الهزائم المريرة التى أنزلها به العرب عالقة فى ذهنه وتحز فى أعماق قلبه . فقد رأى الفرصة سانحة ليثأر لنفسه ، فأنصت بكليته الى أقوال الناسك الذى لم يكتف بوصف الفظائع التى يرتكبها السراسنة فحسب بل كان يصف الشرق الفوى وما يحويه من الغرائب والكنوز والخيرات فيثير شعور جمهور معدم لا يملك شروى نقير ولا مايرد به عن نفسه غائلة الجوع .

لقد كانت حالة أوروبا عامة مما يرثى لها ولا سيما فرنسا حيث كانت المجاعة تفتك بالاهالى فتكا ذريعا ففى عهد « هوج كابيت » « وروبير التقى » حلت المجاعة بفرنسا كلها بعد ان نفدت جميع مواردها . وقد ذكر لنا المؤرخ « فونك برنتانو »عدد المجاعات التى وقعت فى تلك الحقبة من التاريخ وهى : « مجاعة فى عام ٩٨٧ وعام ٩٨٩ ومجاعات أخرى من عام ٩٩٠ الى ٩٩٤ ومن ١٠٠٣ الى ١٠٠٨ ومن ١٠١٠ الى ١٠١٤ ومن ١٠٢٧ الى ١٠٢٩ وقد بلغ عدد المجاعات فى فترات ٧٣ عاما من القرن الحادى

عشر ٤٣ مجاعة[1]

وقد وصف المؤرخ « راؤول دى جلابر » بعبارات مؤثرة المجاعة التى حلت عام ١٠٣١ فقال : « ان الناس أخذوا يلتهمون الجثث واشياء أخرى تهتز لها الابدان اشمئزازا لذكرها وذلك بعد أن أجهزوا على جميع الحيوانات ومختلف انواع الطيور وكان البعض يأكلون جذوع الاشجار والاعشاب ليدفعوا بها عن أنفسهم غائلة الموت . وقد أصبحت اللحوم البشرية طعاما مستطابا يتنازعونه فيما بينهم ، وقد دفعت المجاعة ببعض الأفراد الى التغذى بالجثث التى كانوا يستخرجونها من القبور .

وهكذا ألهبت عبارات بطرس الناسك التى كان يصف بها ما فى الشرق من بذخ وخيرات جماهير مستمعيه وأثارت فى قلوبهم شعور الحقد والحسد .

وهكذا أصبح مبدأ الحروب الصليبية نفسه ــ اذا أردنا أن نجد له فى الاصل سببا دينيا ــ أمرا قابلا للمناقشة والمعارضة .

ولكن لا تتصوروا لحظة واحدة ان خطب بطرس الناسك الفياضة هى التى أثرت أو حملت رجلا رفيعا وسياسيا بارعا لبقا كالبابا أوربانوس الثانى على اتخاذ أى قرار . كلا . .

---

(١) تاريخ القرون الوسطى لفونك برنتانو

فأوربانوس الثـــانى لا يأخذ بهذيان ناسك أو اضغاث أحلامه انما هو يريد حججا ووقائع . فالواقع ستأتيه بصـــورة أنباء مزعجة من الشرق .

فقد خرب السلاجقة الاتراك الذين نوهنا بوجودهم بلاد أرمينيا المسيحية القديمة وسلخوها عن الامبراطورية البيزنطيــة وفضلا عن ذلك بلغ مسامع البابا نبأ آخر مزعج وهو نبأ كارثة « مالا زجرد » ولم يشر تاريخ الغرب الى هزيمة « مالازجرد » الا اشارة بسيطة مع العلم بأنها تعادل فى أهميتها خمسة أضعاف هـزيمة « بواتييه » لما أسفرت عنه من النتائج الوخيمة .

وإليك ما قاله المؤرخ جروسيه فى هذا الصـــدد : « فى ذلك العهد اعتلى عرش بيزنطه جندى نشط هو الامبراطور رومانوس ديونيسيوس . وقد أراد هذا الامبراطور فى ربيع عام ١٠٧١ أن يحرر أرمينيا من الأتراك فحشد جيشا قوامه مائة ألف رجل بينهم كثير من الجنود المرتزقة النورمانديين . فسار لملاقاته زعيم الاتراك « البارسلان » ثانى سلاطين السلاجقة واشتبك الجيشان بالقرب من « مالازجرد » شمال بحيره « فان » فى التاسع عشر من شهر أغسطس لعام ١٠٧١ ، وفى هذا اليوم الحاسم من أيام التاريخ رأى رومانوس ان قواده يتخلون عنه ويخـــونونه

فظل وحده مع شرذمة من الرجال المخلصين ودافع عن نفسه دفاع الابطال حتى أثخن بالجراح وقتل جواده تحتـــه وأسر وسيق الى « البارسلان » الذي رحب به كل الترحيب وبالغ فى حسن معاملته واكرامه . وكان البيزنطيون هم الذين فقأوا عينـــيه على أثر اطلاق سراحه بدافع الضغينة والحقد السياسى [1]

وبعد انقضاء ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ عاد السلاجقـــة وهزموا البيزنطيين من جديد فى « نيقوه » ووضعوا أسس مملكة فى آسيا الصغرى ثم انتزعوا مدينة القدس من قبضة العرب فى مصر عام ١٠٧١ كما انتزعوا انطاكية من البيزنطيين عام ١٠٨٥ .

وقد نشر ملك شاه ثالث سلاطين السلاجقة ألوية امبراطوريته من بخاري حتى انطاكية وفى عام ١٠٨٧ غمس سيفه فى مياه البحر المتوسط فكانت اشارته هذه رمزا عجيبا .

وقد توالت هذه الأحداث السريعة فى عهد البابا اوربانوس الثانى وكان لها وقع عظيم فى الغرب كله .

وبفضل ما كان يتمتع به البابا اوربانوس الثـــانى من ذكاء مفرط ونظر ثاقب تخيل أمامه ما سوف يحدث بعد اربعمائة عام : وهو دخول الاتراك الى بيزنطة دخول الظافر الفاتح .

---

(١) اسطورة الحروب الصليبية لجروسيه

فلما شاهد قداسته انهيار الامبراطورية البيزنطية بعد معركة (مالازجرد) وجمودها فى وجه الاتراك الذين انتزعوا منها آسيا الصغرى بأسرها دون ان تحرك ساكنا ، ولما رأي كذلك فى اوروبا عرب اسبانيا يهزمون مرة أخرى امراء اراغون وليون ويهددون باجتياح فرنسا من جديد استقر رأيه ووضع اسس سياسته التى سيسير عليها . وانه لكى ينقذ الغرب من الموت المحقق وخطر الاسلام كان يقتضى على الامم الأوروبية ان تتدخل فى شؤون الشرق وتحمل الحرب الى ابوابه .

ففى الايام الأولى من شهر يونيو عام ١٠٩٥ انتقل اوربانوس الثانى من ايطاليا الى فرنسا موطنه . وفى السابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٠٩٥ وهو اليوم العاشر من ايام مجمع كليرمون المقدس . دعا البابا رسميا المسيحية بأسرها الى حمل السلاح لانقاذ كيان اوروبا .

وهكذا نشبت الحروب الصليبية تحت صيحة — هكذا يريد الله .

وقد قاد الحملة الصليبية الأولى المعروفة « بحملة الفقراء » بطرس الناسك فى أوائل عام ١٠٩٦ أي سنة قبل « حملة الامراء » وقدر المؤرخ شالندون فى كتابه عن تاريخ الحملة الصليبية الاولى

عدد الجنود الذين اشتركوا فيها بخمسة عشر الف رجل - جندوا جميعا من شرق فرنسا واللورين والمانيا -.

وقال المؤرخ جيبون الانجليزى (ان اللصوص الذين كانوا يتبعون بطرس الناسك ليسوا الا وحوشا مفترسة مجردة عن كل عقل [1])

وقد سار بطرس الناسك الذى لقبته « آن كومنين » باسم « بطرس ذى العباءة » [2] ومعه مغامر آخرهو « جوتييه سانزافوار » وقد انضم اليهما مجذوب « بافاري » يدعى « جوتشانك » على رأس طوابير عظيمة من الرجال المعدمين ذوى الملابس المهلهلة الذين أيقظ فيهم الجوع والشقاء أحط أنواع الغرائز وأسوئها واجتازوا بهم أوروبا بمحاذاة نهر الدانوب خلال سهول هنغاريا الموحشة حيث فتك ملك الهنغاريين « كولوبان » بعدد كبير من هؤلاء التعساء وطاردهم بغير ما شفقة ولا رحمة من بلدة الى أخرى حتى أعياهم التعب وأنهك قواهم فهاموا على وجوههم يفرون تارة من الهنغاريين والصقالبة ويقاومون طورا الموت والحديد حتى اجتازوا نهر « الساف » وحطوا رحالهم فى أراضى بيزنطة

---

1 -*Gibbon : Decline & fall of the Roman Empire*

2 - *Alexiade : Livre X* السكسياد - الجزء العاشر

على أن « الكسيس كومنين » امبراطور بيزنطة فى ذاك العهد الذى سحرته فكرة الحروب الصليبية بادىء ذى بدء — لانه كان يرجو ان يجد فى عنصرها حلفاء أشداء أو مرؤوسين اوفياء يستعين بهم على استرداد المدن التى انتزعها منه السلاجقة فى آسيا الصغري — لم يلبث ان خابت آماله أمام هذه العصابات من الفقراء المتشردين فهو لم يكد يرى « تلك الطغمة المؤلفة من الهمج » — على حد تعبير كريمته « آن كومنين » التى ضمنت كتابها « الكسياد » بيانات وافية عن الحرب الصليبية الاولى — تطأ بأقدامها القذرة أراضى بلاده وتسير حتى أبواب القسطنطينية مقر ملكه — حتى أدرك بثاقب بصيرته النتائج الوخيمة التى قد تحل بولاياته وعاصمته من جراء مرور هذه العصابات العديدة غير النظامية ، فحظر عليها دخول المدينة ولم يقبل تموينها الا مكرها ثم سعى سعيا حثيثاً الى توجيه هذا السيل من الهمج نحو آسيا الصغرى بأسرع ما يمكن .

وفى فصل الصيف من عام ١٠٩٦ قدم بيزنطة احد العظماء هو : « شقيق فيليب الاول ملك فرنسا ، الامير الرفيع الشأن ذو الصولة والجاه ، السيد هوج كونت دى فرناندوا وكونت دي درو وسيد نيسل وكليرامبو وفاندوي » على رأس كتيبة من خيرة فرسان

فرنسا لتحرير الاراضى المقدسة من الكفار (١)

وقد استقبل الامبراطور الكسيس «ابن فرنسا» هـذا استقبالا عظيما رائعا وكان هو الوحيد الذى أذن له بالاقامة فى القسطنطينية. على أن الامير الفرنسى الصلف لم يكن ليتوقع - بعد كل مظاهر الود والشرف التى أحيط بها - أن يراقب مراقبة الأسرى أو يكره على الركوع أمام الامبراطور ليحلف بين يديه يمين الولاء والاخلاص لكى يتسنى له مغادرة بلاطه وولاياته والذهاب الى الشرق لمقاتلة الكفار.

ولم تلبث القسطنطينية ان أصبحت محط رحال جميع الصليبيين النازحين الى الشرق.

وفى فصل الخريف من السنة نفسها (١٠٩٦) وصل الى ولايات الامبراطور شخص آخر عظيم الشأن هو (جودفروا دى بويون) دوق دى لورين يصحبه جيش قوامه ١٠ آلاف فارس من الفلمنديين والالمان واهالى اللورين وأكثر من ٦٠ الف جندي من المشاة. وقد قدر لهذا الجيش - الذي يربو عدد رجاله على جيش الكونت دي فرناندوا وسائر الجيوش الاخري بما فيها جيوش بويموند وتانكريد وتارنت التى اندفع

(١) تاريخ البير ايكس

سيلها فيما بعد لتعزيز جيوش الحملة الصليبية الاولى — أن يلعب دوراً هاما فى فلسطين اذ رفع جـودفروا وسلالته على عرش القـدس .

وقد دخل جودفروا دى بويون اراضى بيزنطة بطريق هنغاريا وسار الى مدينة (اندرينوبوليس) واطلق يد السلب فيها ثم الى مدينة سيليفري فاضرم النار فيها انتقاما لما كان يظهره البيزنطيون من سوء النية فى تموين جيشه .

فلما علم الكسيس بما حل بمدينة سيليفرى أرسل الى جودفروا دى بويون مندوبين فرنسيين كانا فى خدمته هما (راوول بدلين) و (روجيه داجوبير) ليطلبا اليه أن يكف عن أعمال السلب والنهب (١) فاذعن الدوق دى لورين وغادر مدينة سيليفري بعد أن خربها وأقام معسكره أمام أسوار القسطنطينية .

لقد تركهم الكسيس الاول خارج أبواب عاصمته بعيداً عنه كما لو كانوا من عامة الفلاحين أو طغمة من النور الرحالة الذين لا يليق بهم ان يتخطوا أبواب المدينة الشهيرة . فدارت عند أبواب المدينة مباحثات لا نهاية لها وهى مباحثات لم تكن فى الواقع الا ضرب من ضروب التلاعب والاحتيال تذرع

---

(١) شالندون

به الطرفان . وظل جودفروا عند ابواب المدينة حانقا متذمراً يأبى الانصياع لدعوة الكسيس الذى أبى من جانبه أن يمونه .

وهدد جودفروا الكسيس بمهاجمته واشعال النار فى المدينة فاجابه الكسيس على هذا التهديد بأن حبس يده عنه وكف عن مده بالمعونة المادية التى وافق على تزويده بها وان كانت قليلة . فأخذ جودفروا فى نهب ما يحيط بالمدينة غير هياب ولا وجل .

تصور حفظك الله ما ينجم عن وجود سبعين ألف رجل عراة حفاة من تهديد ووعيد خصوصاً اذا أضيف الى ما كانوا عليه من فاقة وجوع وما يساور مخيلتهم من وساوس وافكار سيئة وهم على قاب قوسين أو أدنى من باب المدينة . وانك لو تصورت ذلك لعجبت من تعنت الكسيس وصلابة رأيه وشجاعته فى استمراره على عدم إجابة جودفروا الى مطالبه حتى يئس وتمنعه عن مده بما كان يطلبه من معونة بل عن تعضيد رجاله له فى جميع الاعمال الحربية فى الشرق ، بل ما هو أشد وأدهى عن مده بالاسطول البيزنطى وهو الوسيلة الوحيدة لتموين جيوش الصليبيين بعد أن نزلوا فى فلسطين .

فاذا كان الكسيس لم يفقد أبداً شعوره فان جودفروا كان

على وشك أن يفقده .

فما الحيلة اذن ؟ لم يأت جـــودفروا وفرسانه من أقصى المعمورة ليقاتلوا امبراطـــور بيزنطة ولـكن جاءوا لينكلوا بالمسلمين ؛ ولما كان الامبراطور غير مسلم فلم يكن فى استطاعة الصليبيين على الرغم من جميع تلك المعاكسات ان يشهروا السيف فى وجهه ما دام مسيحيا وما داموا هم داخل ولاياته وتحت رحمته دون أن يثيروا على أنفسهم فضيحة كبرى فى جميــع انحاء المسيحيـــة .

نخفف جودفروا من غلوائه وهدأ من حدة طباعه وطلب ان يفاوض الامبراطور .

كان الـكسيس سياسيا حاذقا حتى يحتقر القوة التى يستطيع الصليبيون أن يضعوها تحت امرته فرأى ان ينتهـز الفرصة ليسترد من الترك ولايات الامبراطورية القديمة « وانه لـكى يصل الى ذلك كان لا بد له ان يقنع الصليبيين بأن يحاربوا لحسابه . وفى سبيل الوصول الى تلك الغاية كان عليه ان يتدبر أحد أمرين : اما اكتساب الصليبيين بالمال واما أن يجعل منهم جيشاً مأجورا يكون يمينهم بالطاعة للأمبراطور خير ضمان لاخلاصهم له [1] »

---

(١) ف . شالندون ـ تاريخ الحرب الصليبيه الاولى.

ليس هناك شك فى أن فكرة حلف يمين الطاعة للامبراطور اليونانى الارثوذكسى ومحاربة الترك لصالحه كانت تصطدم بأنانية زعماء الحملة الصليبية الاولى وكبريائهم .

وهكذا عندما أرسل الامبراطور الكسيس الى جودفروا دى بويون رسوله الكونت دى فرناندوا للتوسط فى الصلح فان ذلك لم يجد نفعا ولم يغير من وضع الامور لان هذا الكونت كان هو أيضا قد ذاق بدوره متاعب الامبراطور ومعاكساته وطالما سمع منه رنة اجاباته وقوله : « لا معونة ولا أسطول بدون يمين الطاعة » .

كان الدوق دى لورين عظيم الأنفة قلما يلين عودا فاحتدم لتلك الاهانة التى تسترها مثل هذه الاقتراحات فرفض ان يفاوض وعاد الى تخريب ضواحى المدينة من جديد واحتشد الصليبيون أمام باب « سان رومان » ليفتكوا بفصيلة من جنود الترك المرتزقة الذين يحاربون لحساب البيزنطيين . فصدر الامر الى رماة النبال البيزنطيين بان يسددوا نبالهم الى الصليبيين واشتبك الفريقان وحمى وطيس القتال واذ ذاك أصدر الامبراطور أمره الى البتريس نيسيفوروس برينيوس أن يهاجم الصليبيين ويحمل عليهم .

فهاجم برينيوس على رأس مرتزقة من النورمانديين وعبيد الحرس الامبراطورى فرسان جودفروا بشدة وردهم الى خيامهم على مدى بضعة فراسخ من المدينة .

اذ ذاك سلم جودفروا دى بويون ورضخ لأرادة الكسيس وقبل مقترحاته .

واصطحب جودفروا ثلاثمائة من فرسانه على خيولهم المطهمة وسار يحيط به سياسه وخدمه وقسيسه نحو المدينة حتى إذا ما أصبح على فرسخ منها قابلته حاشية من البطارقة البيزنطيين الرومانيين فسار الدوق دى لورين فى وسطها مخذولا والحقد ملء فؤاده واجتاز باب « سان رومان » وقطع المدينة حتى وصل الى قصر « بلاشيرن » ليقدم خضوعه لالكسيس .

وجثا جودفروا دى لورين وأمير الامبراطورية الرومانية المقدسه امام الامبراطور الذى كان يجلس على عرش مرتفع وحلف يمين الطاعة .. « وتعهد بأن يكون رجل الامبراطور كما قطع على نفسه أن يعيد اليه جميع البلاد والاقاليم التى كانت تابعة للامبراطورية[1] » وقبل الكسيس الدوق ولقبه بابنه ، وقل على الدوق لورين السلام . !

---

(١) تاريخ الغرب لالبير ديكس

وما أن حلف قواد جيش الصليبيين يمين الطاعة الذى فرض عليهم حتى غمرهم الكسيس بجميع انواع الانعام والعطايا أما اداء يمين الطاعة فكان مدعاة لاقامة كثير من الحفلات الكبيرة

على أن الصليبين عنوا قبل مغادرة القسطنطينية للتوجه الى آسيا الوسطى « بسلب المنازل التى كانوا يأوون اليها كما عنى البرابرة باضرام النار فيها »(١) وهنا قل على الامبراطور السلام . ! وفر جودفروا دي بويون ورجاله الصليبيون نحو مدينة القدس .

لقد أعادوا « نيقوا » الى البيزنظيين أما كيف أعادوها وفى اية حالة نفذوا تعهداتهم نحو الكسيس فهذا لا يعنينا .

كان ذلك العهد فاتحة حروب فظيعة دامية بين الشرق والغرب وهذه الاسطورة وان كانت عظيمة وغير انسانية فانها ستمر بأجيال تعقبها أجيال .

ثقوا بأنى لست بارعة ولا دعية فأتطاول على حقوق الغير فأقص عليكم تاريخ الصليبيين . . .

ولكنى أستطيع فى كثير من التواضع أن أقص عليكم حكاية غضبة لصلاح الدين وهى غضبة ظلت شهيرة فى أساطير الشرق لأن عواقب تلك الغضبة ستكون وحدها تاريخا بأكمله

---

١) الكسياد لآن كومنين — 1) *Alexiade*

الحديث التاريخي السادس

غضبة صلاح الدين

مملكة القدس اللاتينية ـ الفرسان المضيافون والهيكليون Hospitaliers & Templiers – « رينو دى شاتيون » أمير الكرك ، حملته على مكة وغضبة صلاح الدين — الملك بودوان الرابع الاجذم — « غى دى لوسينيان » و « سيبيليا » وتتويجهما ملكين على بيت المقدس — ريموند الثالث أمير طرابلس وجرائم « دى شاتيون » — اتحاد الفرنج — الاتحاد الاسلامى — موقعة حطين — اعدام « دي شاتيون » — استيلاء صلاح الدين على القدس — بعد الحرب الصليبية الثالثة — وفاة صلاح الدين .

كانت فلسطين فى أوائل القرن الثانى عشر فريسة سائغة تمزقها الحروب الدينية والمنازعات السياسية .

فقد حدث عقب الحملة الصليبية الاولى التى قادها « جودفروا دي بويون » (١٠٩٩ — ١١٢٤) وأسفرت عن تأسيس المملكة اللاتينية فى بيت المقدس — أن تألفت حول مملكة الفرنج فى الشرق اقطاعيات وامارات انتخب سادتها من مختلف شعوب الغرب فاتبع أولئك السادة فى ادارة شؤون ممتلكاتهم الجديدة فى الشرق نفس نظام الاقطاعيات الذى كانوا يتبعونه فى بلادهم بأوروبا وارتكبوا نفس الاخطاء التى طالما ارتكبوها هناك . وهكذا التفت هذه العناصر المتنافرة المؤلفة من فرنسيين ولومبارديين وألمان وايطاليين حول هذا العرش المتداعى المضطرب ، وبدلا من أن تعضده بقوتها زادته اضطرابا فوق اضطرابه بمنافساتها ومنازعاتها التى لا نهاية لها .

لقد كانت الاراضى اللاتينية الممتدة بمحاذاة الساحل الفلسطينى بين نهر الفرات ومصر تتمتع بشيء من الطمأنينة والسلام بفضل ما كانت تحتوي عليه من مراكز حربية منيعة وبفضل ما كان يربطها بالغرب من علاقات سياسية تجارية بواسطة سفن الكرسى البابوي وأساطيل البندقية .وكانت الامارات الواقعة فى الجهة الغربية أبعد من أن تنعم بأقل عوامل الأمن والطمأنينة ، اذ أن الامبراطورية البيزنطية التى كان لا يروقها توسع المملكة

اللاتينية فى الشرق ، كانت ترقبها عن كثب و تنظر اليها نظرة ملؤها الحقد و الضغينة . هذا فضلا عما لاقته تلك الامارات من ضروب المعاكسات وما حاق بها من محن وارزاء على أيدي أمراء حلب وحماه ودمشق الذين كانوا لا يترددون فى فرض الجزية عليها .

أما الامارات اللاتينية فى الجنوب فقد لقيت بعض التسامح من جانب مصر جارتها التى أذنت لها باحتلال ميناء عايله على البحر الأحمر والاشراف على الاديرة فى سينا ، على أن هذا التسامح لم يمنع مصر من شن الغارات على تلك الامارات بين الفينة و الفينة واثارة المتاعب واقامة العراقيل فى سبيلها . ولم يكن على هذه الامارات المنتشرة فى أرض الشام وارض يهوذا أن تدافع عن نفسها ضد الامراء المسلمين فحسب . بل كان عليها ان تقف فى وجه سياسة بيزنطة المنطوية على الخديعة والدهاء ، كما كان عليها ان تدافع عن نفسها من نفسها فقد كانت المنازعات والمشاغبات تنشب باستمرار بين امرائها كما هى الحال بين الامراء المسلمين قبل أن يجمع صلاح الدين شملهم ويوحد كلمتهم ويؤلف منهم الاتحاد الأسلامى الذى لم يلبث ان قلب أوضاع الأمور ظهرا على عقب .

ولا شك فى أن هناك أشد العناصر خطورة فى هذا الخليط من الشعوب والمحيط من الدسائس كانت الطوائف العسكرية الثلاث (١) وهى طوائف الفرسان المضيافين والهيكليين والتوتونيين الذين كانت منازعاتهم وأحقادهم سببا فى اثارة كثير من المشاغبات الداخلية فى المملكة. حقا أن المملكة اللاتينيه كانت مدينة لهذه الطوائف بما تقدمه لها من تعضيد عسكري قوى ولكنها كانت تدين لهم فى الوقت نفسه بأكثر الحروب التى كانت تنشب بين امرائها اذ كان هؤلاء الفرسان الرهبان يناصرون بعضهم تارة ويخاصمون البعض الآخر طوراً ويدافعون عن تاج القدس حينا ويقاتلونه حينا آخر.

أما أشد هذه الطوائف العسكرية شغباً فكانت طائفه الفرسان المضيافين، لقد أقام المضيافون فى القدس باذن خاص من الخليفة العزيز الفاطمى بحجة القيام بأعمال البر والاحسان نحو الحجاج

---

(١)

ا ـ فى عام ١١١٣ حول الرئيس « جيرار دى بوى » هؤلاء الرهبان الى فرسان

ب ـ فى ١١١٨ أسس هوج دى بايانس طائفة الهيكليين فى القدس وقد كانوا يقسمون بان يكونوا أول من يقاتلون فى ميادين الحرب وآخر من ينسحبون منها.

ج ـ اقام المضيافون فى القدس قبل مجىء الصليبين وباذن خاص من الخليفة العزيز الفاطمي وذلك للقيام باعمال البر والأحسان نحو الحجاج. ويلوح ان هذا الغرض لم يعد يتفق وحاجات الظروف عندما اصبحت المملكة اللاتينية فى حاجة الى مدافعين (تاريخ مصر من عهد مينا الى أيامنا للاب هينو صفحة ٢٣٧)

والحق يقال أنهم باشروها بما يستوجب لهم كل مدح وثناء .

ولم يكن « جيرار دى بروفانس » الذى أنشأ تلك المؤسسة لمساعدة الجرحى وقت الحرب ومعالجة المرضى وقت السلم ولا الخليفة العزيز المتسامح الذى تمتع اولئك الرهبان بحمايته وعطاياه ليتوقعا ما يخبئه لهما المستقبل فى طياته وما ستأتى به الظروف من تعديلات وتطورات بالنسبة للاول الذى كانت فكرته الاساسية قائمة على النزاهة والرحمة فاسىء استعمالها فيما بعد وبالنسبة للثانى لانه ساعد على بذر بذور الخيانات على الرغم منه فى وسط ولاياته

على أن الأمور سارت سيرها الطبيعى الى أن أتت الحروب الصليبية فيما بعد وحولت اولئك الرهبان المسالمين الى جنود مقاتلين وطغمة من اللصوص وقطاعى الطرق .

وقد استمر المضيافون فى مزاولة أعمالهم الخيرية ولكنهم قلما كانوا يباشرونها لاغراض نزيهة بحته . لقد كانوا يقومون بها بقوة السلاح فأدى افراطهم الى استفزاز شعور الجميع من صليبيين وسراسنة .

وقد أدى المضيافون خدمات جليلة للسراسنة بأثارتهم القلاقل والاضطرابات دون أن يخونوا لذلك قضية الفرنج . فقد كانوا يحددون لعملهم ثمنا وكثيراً ما كانوا يتجاوزون هذا الثمن .

بما تمتد إليه أيديهم ويسلبونه من القوافل العربية الثرية، كان السطو على قوافل السراسنة من الامور الطبيعية فى نظرهم باعتبار ان السراسنة من الاعداء. ولكنهم عندما كانوا يسلبون القوافل البيزنطية أو يأسرونها بطريق الخطأ — وهو خطأ طالما رأت بيزنطة أنه يتكرر كثيراً — فقد كان من شأن هذه الاعتداءات ان تقلق امبراطور بيزنطة الذى كان فى الواقع عدوا أكثر منه صديقا وحليفا — وأن تساعد على تعكير صفو العلاقات السياسية وزيادة توترها بين الامبراطورية البيزنطية والمملكة اللاتينية فى بيت المقدس.

وقد حذا فى النهاية عدد كبير من أمراء الفرنج حذو الفرسان المضيافين وحاولوا بدورهم أن يختبروا حظهم بغارات مثمرة على قوافل البيزنطيين والسراسنة سواء أكان ذلك فى وقت السلم أو فى وقت الهدنة وعلى الرغم من جميع المحالفات القائمة لقد كانوا يرون فى هذه الاعمال ضربا من ضروب الرياضة أو على تعبيرنا الحديث نوعا من «الرهان» يعود عليهم بالمنفعة والارباح الجمة.

وإنى أقول لكم الآن ان امراء الشام والاتابك كانوا ينسجون على نفس المنوال اذا استثنينا احترامهم — كما يعترف لهم بذلك

المؤرخون اللاتينيون أنفسهم — للتعهدات التى كانوا يقطعونها على أنفسهم فى وقت السلم ، ولما كان المرء يدافع عن نفسه بما يملكه من الموارد فقد قابل اولئك الامراء الغارات بمثلها وأخذوا يغيرون على قوافل الفرسان الهيكليين والمضيافين الذين كانت تعهد اليهم جمهورية البندقية بحراسة قوافلها الغنية بالبضائع والنفائس الثمينة اثناء مرورها فى البلاد . على أنه قلما وصلت تلك القوافل الى نهاية رحلتها سالمة وكثيرا ما كانت طرقها تمتلىء بجثث الفرسان المضيافين أو سواهم . وخليق بنا أن نقول أن الأتابك لم يلجأوا الى مثل تلك الوسائل الا ليقابلوا هؤلاء الفرسان بمثل ما كانوا يلاقونه منهم .

وفى أواخر القرن الثانى عشر ، وفى عهد صلاح الدين كان يعيش رجل مغامر رفيع الشأن هو « رينو دى شاتيون » أمير انطاكيه السابق . كان هذا الرجل الغريب الاطوار يتمتع — بفضل ما كان يتحلى به من البسالة والاقدام — بشهرة البطولة بين فرسان الفرنج على أن ملوك بيت المقدس أمثال أمورى الاول وبودوان الرابع ولوسينيان كانوا يفضلون الاكتفاء بالاعجاب بأعماله الحربية على ان يتدخلوا فى شئونه أو يفضوا مشاكله ودسائسه .

كان شاتيون قد فر من الأسر بعد أن قضى نيفاً وعشرين عاما فى قبضة الاتراك ثم ابتسم له الحظ بفضل قران سعيد فأصبح أمير وادي موسى ومونتريال والكرك. وهذا الأمير هو الذى أثار غضبة صلاح الدين الشهيرة وهى الغضبة التى أنزلت بالمملكة اللاتينية شر النتائج والويلات. كانت طبيعة هذا الفارس اللص شرسة تمثل ما امتازت به طبائع فرسان الغرب فى ذاك العهد من ميل للمغامرات وتعطش لأراقة الدماء. فلما حل فى الشرق أصبح أشبه ببدوي فرنسى لا يري الحرب الا بمثابة غارات وغزوات ومما يروى عنه أنه لما كان أميرا على انطاكية، لعشرين عاما خلت، استفز الامبراطورية البيزنطية باعماله الاجرامية المتكررة وكاد يثيرها ضد الفرنج، ولكن ماذا عساه أن يقع لو انه استطرد أعماله هذه ضد عدو بمثل سلطان صلاح الدين ومقدرته وعظمته [1] أما تلك الاعمال التى يتحدث عنها « جروسيه » فقد عاودها « رينو دي شاتيون » كلها.

كانت مصر والشام فى ذاك الوقت ترضخ لحكم السلطان الأعظم. وكانت بغية هذا السلطان المحافظة على طرق المواصلات حرة طليقة بين مختلف أجزاء امبراطوريته. ولما كانت ممتلكات

---

(١) اسطورة الحروب الصليبية لجروسيه

« دي شاتيون » وهى الكرك ووادى موسى تمتد على طول خط
المواصلات بين دمشق والقاهرة . أمضى صلاح الدين هدنة مع
« رينو دى شاتيون » لعدة سنوات . وكان يتعين على هذا الاخير
ـ بموجب تلك المعاهدة ـ أن يكف عن القيام من قلعتيه فى
الكرك وشوبك (مونتريال) بأيه غارة على قوافل المسلمين وأن
يحترم القوانين المتبعة فى وقت السلم أو على الاقل ان يحترم ـ
وفاقا لمبادىء الشرف الاولية ـ العهد الذى قطعه على نفسه
والمعاهدات التى وقعها وهى معاهدات كانت تعود عليه بفوائد جمة
إذ كان يتقاضى بموجبها رسوما باهظة عن كل قافلة تمر بأراضيه .

ولكن اذا كان صلاح الدين قد احترم دائما كلمته فأن
امراء الفرنج والفرسان المضيافين قلما كانوا يحترمون كلمتهم . أما
« رينو دى شاتيون » فأنه لم يحترمها اطلاقا .

وقد اشتهر عام ١١٨١ فى تاريخ مغامرات « شاتيون » بأشد
حملة من حملاته وأعظمها جرأة ووقاحة . فقد حدث ـ لكثرة
ما رأى فرسان الفرنج من قوافل وحجاج يجتازون أراضيهم فى
كل ربيع ، فى طريقهم من سوريا الى المدن المقدسة ، ولكثرة
ما سمعوه من الأقاصيص عن تجار العرب والجمالة البدو وما يحملون
من كنوز ثمينة الى تلك الاصقاع المجهولة المحظور دخولها

على غير المسلمين ان التهبت مخيلة اولئك الفرسان فخيل إليهم ان الكنوز التى ترسل الى الحجاز وتتراكم فيها عظيمة لا تقدر بثمن .

فالتهبت الرؤوس وتوترت الافكار واتجهت نحو غاية جنونية قل أن يوجد ما يحول دون الوصول إليها .

ولم تكن التصورات الجريئة لتروق فى عينى أحد أكثر مما كانت تروق فى نظر « رينو دى شاتيون » فنفسه التى لم تكن تعرف الخوف والجزع الى جانب ما كانت عليه من الجرأة وعدم التهيب من شىء — كانت لا تتوق الا الى مهاجمة الحجاج للاستيلاء على قوافلهم ثم محاصرة المدن المحظورة المفتوحة كمكة والمدينة وفرض الاتاوة عليها .

كانت تلك الخطة تتطلب لتنفيذها التغلب على كثير من الصعاب بسبب المسافات الطويلة التى كان يجب قطعها فى وسط تلك الصحارى القاحلة المترامية الاطراف . لقد كان من المستحيل الوصول الى مكة ومهاجمتها عن طريق البر ولذلك فكر فى أن خير السبل لادراكها هو عن طريق البحر .

والواقع ان مقاطعتى الكرك ومونتريال كانتا تمتدان من البحر الميت الى جوار خليج العقبة على البحر الاحمر حيث كانت

ميناء « عايله » الموحشة المقفرة تقع فى أقصى طرف تلك المنطقة الملتهبة بنيران الشمس المحرقة .

كانت لمدينة « عايله » فى ذلك العهد مكانة كبرى كميناء للابحار ومركز تغص به القوافل القادمة من مصر والشام والحجاز وفى طريقها إليها . وانها لذلك استلفتت انظار « شاتيون » فكان لا بد له أن يستولى عليها اولا لضمان نجاح حملته .

فأمر بصنع سفن فى عسقلان أو فى الكرك حيث أخذ بدو الصحراء على عاتقهم أن ينقلوا أجزاءها الى بحر العقبة على ظهور جمالهم فى نظير ثمن معين (١) ثم أعيد تركيب هذه الأجزاء على الساحل بالقرب من عايله وهكذا أعدت — للقيام بتلك المغامرة الجنونية — خمس سفن شراعية كبيرة وعشر سفن أخرى أقل حجما منها أي ما يوازى أسطولا صغيرا مؤلفاً من ١٥ أو ١٦ سفينة . وقد شحنت تلك السفن بالرجال والعتاد والمواد الغذائية على وجه السرعة كى لا تصل انباؤها الى السراسنة لان « شاتيون » لم يكن قد نقض معاهداته معهم ، وما هى الا فترة وجيزة حتى أقلع اولئك المغامرون — وهم من مغامرى القرن الثانى عشر — وخاضوا بسفنهم غمار البحر .

---

(١) اقاصيص بيزنطة والحروب الصليبية لغوستاف شلومبرجر صفحه ١٤٦

وقد روى لنا المؤرخون بلغتهم الساذجة ان أمير الكرك قسم أسطوله إلى مجموعتين ، حاصرت الاولى منه ميناء « عايله » بقيادة شاتيون ، وقال المؤرخ شلومبرجر « ان المجموعة الثانية الفرنجية » أسرعت فى رحلتها نحو الغاية التى كانت ترمى اليها وهى سلب المدينتين المقدستين : مكه والمدينة .

وقد لبثت سفن الفرنج نحو عام تقريبا وهى تنزل الخراب والدمار فى سواحل البحر الاحمر . ثم اتجهت نحو عدن فسلبت المدينة ونهبتها وآبت منها برهائن من الرجال العظام بينهم قاضى المدينة وكثير من العلماء . ثم قصدت سفن المغامرين السواحل المصرية فخربت ميناء عيداب الصغير الذى يقع مقابل جده تقريباً وسار اولئك المغامرون بعد ذلك بمحاذاة الساحل فسطوا على قافلة عظيمة بين عيداب والقصير وفتكوا بجميع رجالها ، ثم استولوا على ثلاث سفن عربية وذبحوا مئات الحجاج الذين كانت تقلهم تلك السفن عائدة من الحجاز ، وقد صرح المؤرخ « أرنل » بأن تلك الغنائم كانت ثرية فاخرة بما تحويه من الكنوز الثمينة .

ولم يسبق قط لهذه البلدان الهادئة المسالمة ان رأت مثل مارأته من فظائع الصليبيين وجرائمهم . وقد وصلت أنباء هذه الحوادث

المؤلمة الى القاهرة فهب العالم الاسلامى أجمع وثارت ثائرته سخطاً واشمئزازا .

وفى مدة غياب صلاح الدين فى سوريا كان شقيقه الملك العادل يدير شؤون مصر بالنيابة عنه . فلم يضيع النائب وقته سدى ولما لم يكن لمصر سفن حربية فى البحر الاحمر ، حذا الملك العادل حذو الدوق « دى شاتيون » فأمر بفك أجزاء بعض السفن فى ميناء دمياط ونقلها على جناح السرعة فوق ظهور الجمال الى البحر الاحمر حيث أعيد تركيبها بالقرب من السويس .

وقد تولى الأمير لؤلؤ قيادة هذا الاسطول فشحنه بالمواد الغذائية وجهزه برجال من المغاربة والمماليك المدربين على معارك البحار وأقلع بأسطوله فى الايام الاولى من شهر يناير لعام ١١٨٣ .

وقد انقض المصريون أولا على سفن اللاتين التى كانت تحاصر « عايلة » وانقذوا المدينة من براثنهم فى اليوم الثانى من شهر مارس لعام ١١٨٣ (٥ ذو القعدة ٥٧٨) . وهكذا اضطر الفرنج بعد ان احترقت سفنهم الى الالتجاء الى البر حيث هزمهم القائد لؤلؤ شر هزيمة على الرغم مما أبدوه من المقاومة العنيفة وعلى أثر انتصارهم أخذ المصريون يتعقبون المجموعة الثانية

من سفن الفرنج .

وكان لابد للقائد لؤلؤ من السير حثيثا لأن اسطول الفرنج كان قد أنزل الفرسان عند ساحل جزيرة العرب حيث أخذت جموعهم تسير فى الرمال المحرقة متجهة نحو المدينة .

وفى شهر يوليو اكتشف القائد لؤلؤ سفن اللاتين راسية عند شمال جدة فدمرها واستولى على عدد كبير من الاسرى ثم أخذ يطارد السفن الاخرى .

وقد انضمت جموع أهالى السواحل والحجاج الى المصريين للدفاع عن المدينة . ولم يعد أمام الفرنج طريق يستطيعون الانسحاب منه بعد أن حرق جزء من سفنهم وأسر الجزء الآخر فأخذ المسلمون يطاردونهم خلال صحراء العرب المحرقة حتى أدركوهم أخيرا فى وادى « منى » على مسيرة يوم من المدينة المكرمة .

وبعد معركة عنيفة سحق لؤلؤ الفرسان اللاتين وعاد بهم أسرى الى القاهرة حيث رحب به الاهالى ترحيبا حماسيا عظيما واستقبلوه استقبال الغزاة الفاتحين .

ولكن صلاح الدين لم يتغاض عن فعال « شاتيون » فاحتج على مسلكه المشين احتجاجا شديدا لدي الملك بودوان الرابع

وقد قال المؤرخ جروسيه : « ان نبأ هذا الاعتداء الجنونى قد غمر بلاط القدس فى بحر من الشجون . ويلوح أن مسلك الامير قد استفز بوجه خاص شعور الاشمئزاز فى قلب الملك بودوان الرابع وأثار حنقه وسخطه عليه . فقد قطع الفرنج بما ارتكبوه من الاخطاء حبل السلام فى ظروف مشينة جعلت العالم الاسلامى قاطبة ينظر إليهم نظرته الى الخونة الحانثين بعهودهم . على أن بودوان — ازاء الخطر الماثل أمام عينيه — تذرع بنفوذه الذى يخوله له حق الملك فوبخ « رينو » توبيخاً مراً ودعاه الى أن يرد فى الحال الى صلاح الدين جميع الغنائم التى غنمها والرجال الذين وقعوا فى أسره . ولكن أمير شرق الاردن كان يهزأ بسلطة الملك وقلما كان يضعها من نفسه موضع الاعتبار فقابل بالرفض والاستهزاء جميع نداءات الشرف أو الواجب التى وجهت اليه فاضطر الملك البائس الى الاعتراف لصلاح الدين بعجزه عن حمل هذا الامير التابع على الطاعة ؛ فنشبت الحرب بين المملكتين (١)

واجتاح صلاح الدين شرق الاردن ثم أرض الجليل وهجم على الفرسان المضيافين فى بيسان ودحرهم ثم دك قلعتهم فى بلفوار التى كانت تسيطر على طريق الناصرة ثم قفل راجعاً الى دمشق

---

(١) اسطورة الحروب الصليبية لجروسيه

الشام . وغزا جيش آخر من السراسنة مدينة مؤاب ومونتريال حيث لجأ شاتيون بعد نجاته بأعجوبة من مغامرته الجنونية فى عايله وقد كان عندئذ فى حالة يرثى لها فاستنجد بالملك الاجذم بودوان الرابع ، كان ملك بيت المقدس التعس على جانب عظيم من الورع والتقوي بقدر ما كان عليه من البسالة والشجاعة ، على أنه كان مصابا بداء عضال منذ طفولته فكانت حياته سلسلة احتضار بطىء ولكنه احتضار قضاه على صهوة جواده فكان أشبه باحتضار الجبابرة الابطال ؛ وقد كان من كرم هذا الملك ان لبى نداء الامير الخائن الذى طالما تحدى سلطته الملكية ، فجمع جيوشه وأسرع الى نجدته وانقذه وممتلكاته من مخالب العرب ووصل بودوان الرابع فى حملته الثانية الى أبواب دمشق حتى اقترب من دريه التى احترم مسجدها وأهاليها ، على أنه كان لابد للملك ان يتوجس خيفة من صلاح الدين الذى كان منهمكا فى أرض حوران . وقد عاد صلاح الدين وحمل على الفرنج فى حلب وانتزع المدينة من أيديهم ثم قفل راجعاً الى دمشق لاعداد حملة ثالثة على فلسطين .

عندئذ نال المرض من نشاط بودوان الرابع فعاد الى الناصرة فاقد البصر تقريبا ودعا حوله أقرباءه وأتباعه والبطريرك

هيرقليوس . وفى وسط هذا المجلس العائلى عهد المحتضر الى « غى دى لوسينيان زوج شقيقته سيبيليا بوصاية العرش وقيادة الجيش كان « غى دى لوسينيان » شابا جميل الطلعة معجبا بنفسه ولكنه كان ضعيف الارادة متردداً . وقد سلك فى حكمه مسلك المجانين على حد تعبير المؤرخين اللاتين فدل على أنه زعيم ضئيل .

وبعد انقضاء بضعة أشهر ابان عام ١١٨٤ اجتاح صلاح الدين أرض الجليل من جديد ، فسار لوسينيان الى ملاقاته . على أن السراسنة هزموه شر هزيمة عند « عين جالوت » . وقد حاول أن يصلح من أمر تلك الهزيمة الشنعاء فأمر بالقيام بهجوم عام مضاد وهو هجوم كاد أن يودى بحياة فرسان الفرنج لولم يحل ريموند الثالث أمير طرابلس دون تنفيذه . ففقد لوسينيان عندئذ رباطة جأشه وخانته قواه فولى الادبار تاركا أمير طرابلس والفرسان يتولون حماية انسحابهم — بقدر ما يستطيعون — ازاء قوات صلاح الدين الظافرة .

وفى النهاية أدي سلوك غى دى لوسينيان المشين وعدم كفاءته وسوء تصرفه الى اختلافه نهائيا مع الملك بودوان الذى أقاله من قيادة الجيش والوصاية على العرش وعهد بهما الى ريموند

أمير طرابلس . وفى عام ١١٨٥ توفى الملك بودوان الرابع فخلفه على عرش القدس — وفاقا لارادته الاخيرة — ابن شقيقه بودوان الخامس وهو طفل فى السادسة من عمره . وفى العام التالى أي سنة ١١٨٦ توفى الملك الطفل فى عكا وآل العرش الى الوارثة الوحيدة وهى الاميرة سيبيليا شقيقة الملك الاجذم وزوجة « غى دى لوسينيان » الذي لم يكن هناك من الامراء اللاتين من يريد به ملكا عليه .

وقد ظن ريموند الثالث أمير طرابلس أن له حقوقا فى عرش القدس . وقد عارض الفرسان اللاتين والمضيافون – وكلهم من أشد أعداء لوسينيان — معارضة شديدة وأبوا أن يعترفوا بالاميرة الشابة وحقوقها الشرعية فى التاج فاجتمعوا فى نابلس وانضموا تحت لواء البطل أمير طرابلس وطالبوا خصومهم بأن يعترفوا لهذا الاخير بحقوقه فى مملكة بيت المقدس وان كانت تلك الحقوق غامضة غير شرعية .

على أن أولئك الفرسان عملوا دون ان يعبأوا « برينو دى شاتيون » أو يحسبوا له حسابا . فانتصر أمير الكرك لقضية الاميرة سيبيليا وزوجها وحصل لهما على تأييد البطريرك هيرقليوس ورجال الدين الذين انضم إليهم الهيكليون بدافع الضغينة والحقد نحو

المضيافين منافسيهم القدماء ، وبدافع الانتقام من أمير طرابلس الذى حرم رئيس طائفتهم من إيرادات اقطاعية بوتروم . وبعد أن تم لهم إقامة الزوجين الملكين فى القدس دعوا جميع أتباع المملكة بما فيهم أمير طرابلس الى حضور حفلة تتويج سيبيليا وزوجها « غى دي لوسينيان » .

وقد حظر العظماء من أتباع الملك على البطريرك أن يتولى إقامة الشعائر الدينية فى حفلة التتويج . فأجاب البطريرك والفرسان الهيكليون الذين انضموا نهائياً الى قضية الاميرة سيبيليا على هذا الانذار بأن أغلقوا أبواب القدس وتحصنوا فيها للدفاع عن أنفسهم ضد كل هجوم محتمل قد يقوم به أولئك الأتباع .

فاستفحل الأمر واشتدت خطورته . على أنه كان يستحيل على الملكين الجديدين أن يتوجا بغير مساعدة رئيس طائفة المضيافين الذى كان — بماله من الحق بحكم منصبه — يحتفظ بمفاتيح الخزينة التى تحوى التيجان الملكية والصوالج والزيوت المقدسة التى لاغنى عنها لتتويج الملوك ومسحهم ، وقد رفض الرئيس رفضاً باتا أن يجيب طلب البطريرك بتسليمه مفاتيح الخزينة أو الاشتراك فى حفلة التتويج اذا هو لم يتلق أمرا صريحا بذلك من جميع الأمراء الاتباع الذين كانوا — كما رأينا — ثائرين

على الاميرة سيبيليا وزوجها لوسينيان . وأخيرا فكر رئيس المضيافين فى أن يلزم مقر طائفته ليضع حدا لكل مناقشات ومباحثات لا طائل تحتها .

وهكذا ازدادت الحال تعقيداً وارتباكا . واستولى الحزن واليأس على الاميرة « سيبيليا » وزوجها « لوسينيان » من تعسف رئيس المضيافين وتصلب رأيه . فما الحيلة ياترى ؟ اذ ذاك سعى أنصار الاميرة الى الرئيس ، وكان الوقت يمر سريعا ورجوه وتوسلوا إليه فضجر من إلحاحهم وألقى بمفاتيح الخزينة فى وسط الغرفة [1] » وهكذا استطاع أولئك الانصار أن يضعوا أيديهم على الأدوات اللازمة للقيام بهذا التتويج . وكأن الشؤم كان ملازما لتلك المؤامرة . فلم يتوج البطريرك هيرقليوس الا الاميرة سيبيليا وحدها . عندئذ تناولت سيبيليا التاج بدورها وحات به رأس زوجها الطائش الجاثى أمامها وقالت له : « تقبل هذا التاج ياسيدى . فانى لا أعرف من هو خير منك لأقدمه اليه » لقد كان عملها مؤثرا ، على أن إخلاصها كامرأة لم يؤثر فى نفوس الحاضرين اذ أن « جيرار دى ريدفور » رئيس الهيكل كان يحرق على الأرم غيظا من ذلك الذى حرمه من اقطاعية بوتروم ، كما

---

(١) اسطورة الحروب الصليبية لجروسيه صفحة ٢٣٦

كان يتمتم بين شفتيه موجها عباراته الى ريموند الثالث : « ان هذا التاج يوازى ميراث بوتروم (١) أما الامير بودوان دى راما أحد أتباع المملكة البواسل . الذى لم يكن لديه شك فى عدم كفاءة لوسينيان فقد همس بتلك العبارة المحتومة : « انه لن يمكث على العرش سنة واحدة حتى تنهار المملكة وتندثر ! » .

أما ريموند الثالث أمير طرابلس فقد استشاط غضبا لضياع العرش منه فتودد الى صلاح الدين وعقد معه معاهدة ود وصداقه

وعند اعلان هذا النبأ أراد الملك « غى » أن يسير ضد الامير ولكن أتباعه اثنوه عن عزمه بفضل ارشاداتهم الحكيمة وسداد رأيهم وحملوه على عقد هدنة مع صلاح الدين وقد حذا « رينو دى شاتيون » حذوه بعد اذ رأى الحالة تتطور من سىء الى أسوأ . وأسرع بدوره الى عقد الصلح مع السلطان . ولما كان صلاح الدين يعلم ما يضمره شاتيون من سوء النية وقلة الاكتراث بعهوده وعدم احترامه لها . فقد طلب الى الملك « غى » أن يضمن تعهدات الامير وسلوكه في المستقبل ، فلبى الملك هذا الطلب نظرا لتأييد شاتيون له وتعضيده فى حفلة تتويجه المضطربة . وهكذا شملت الطمأنينة البلاد وساد السلام بين

---

(١) اسطورة الحروب الصليبية لجروسيه صفحة ٢٣٦

مملكة بيت المقدس وصلاح الدين . وقد بذل كل من الفريقين ما فى وسعه للمحافظة على تعهداته وسارت الامور سيرها الطبيعى الى أن عاد « شاتيون » وعكر صفو السلام باعتداءاته وجرائمه الشنيعة (١)

ففى اوائل عام ١١٨٧ ذاع نبأ مرور قافلة هامة قادمة من الحجاز فى طريقها إلى دمشق . وكانت تلك القافلة تسير فى ركاب أميرة من الاسرة الايوبية (٢) ربما كانت شقيقة صلاح الدين « شمس الملوك » الملقبة « بسيدة الشام » وهى عائدة من مكة بعد أداء فريضة الحج (٣)

فلم يستطع الفارس اللص — عند سماعه هذا النبأ — أن يكبح جماح غرائزه الشريرة التى تدفعه الى النهب والسلب وكانت هذه اللحظة هى التى اختارها لأثارة الحرب واضرام نيرانها . لقد كان لصا وظل طيلة أيام حياته لصاً « فكمن للقافلة

---

(١) مما يؤسف له ان رينو دى شاتيون أمير شرق الاردن عكر صفو السلام بأن فاجأ قافلة مثرية من حجاج مكه واعتدى على رجالها ثم سلبها علي الرغم من المعاهدات القائمة (تاريخ مصر من عهد الملك مينا الي ايامنا — للاب هينو)

(٢) قال المؤرخ المصرى محمد فريد ابو حديد فى مؤلفه الذى وضعه عن حياة صلاح الدين ان هذه الأميرة كانت كريمة صلاح الدين

(٣) نقض رينو دى شاتيون مرة اخرى المعاهدات باعتدائه على قافله كبيرة من مكة تقل شقيقة صلاح الدين (تاريخ الحروب الصليبية لشلومبرجر الجزء الاول صفحة ١٢٢)

ثم فاجأها وسطا على ما تحمله من البضائع والقى بالتجار ورجال القافلة وجنود الحاشية فى أعماق سجون الكرك .

ولم تنج الاميرة الا بفضل اخلاص بعض المماليك من رجال حاشيتها . أما القافلة فحجزت وقتل جميع من كان يرافقها من الحجاج وهكذا نقضت معاهدة الصلح واستفحلت الحال من جراء تلك الاهانة الخطيرة التى لحقت بالاسلام .

وطلب صلاح الدين الى شاتيون أن يرد الغنائم فرفض شاتيون بوقاحة فأثار برفضه غضب السلطان وحقده فأقسم بأنه لابد أن يموت قتيلا ولسوف يقتله بيده ، ثم رفع الامر الى الملك (غى) وناشده مروءته .

أدرك (غى دى لوسينيان) خطورة الموقف وعظم جرم (شاتيون) فتوسل إليه أن يجيب مطالب صلاح الدين لاجتناب ويلات الحرب ولكنه لم يلق من الامير الا كل سخرية واستهتار

وما أن بدت بوادر حالة التوتر التى نشأت بين المسلمين والصليبيين من جراء ما تقدم حتى دل الملك غى — الذى قلما احترمه فرسانه وطالما هزأ منه انصاره ولم يعترف له العظماء من امراء اللاتين وبينهم ريموند الثالث امير طرابلس بحق ملكيته — على أنه غير كفء لتذليل العقبات وحل المشاكل بقدر ما كان

عاجزاً عن تنظيم الدفاع عن مملكته .

وفى غضون شهر مايو من عام ١١٨٧ قام صلاح الدين ، ولما تخمد نيران ثورته ، بمحاصرة « شاتيون » فى الكرك وأطلق أيدى جنوده تنهب وتسلب فى شرق الأردن ، ثم قر قراره على اجتياح مملكة بيت المقدس بنفسه ليهدد الملك غى ويحصل منه على ترضية لاعتداء « شاتيون » الجنونى أو أن يقاتل ويستميت فى القتال حتى النهاية لاعادة الامور الى نصابها .

فطلب صلاح الدين الى حليفه ريموندان يمنحه حق المرور فى أراضيه بالجليل . فارتبك الامير ارتباكا شديداً من هذا الطلب وأسقط فى يده اذ أنه عرف حتى الان كيف يستميل صلاح الدين اليه ويتذرع بحمايته ضد (غى دى لوسينيان) فاذا هو رفض للمسلمين حق المرور خلال ولاياته فقد يغضب صلاح الدين الذى لم يتخل لحظة واحدة عن حمايته ، واذا هو منحهم هذا الحق فقد يعلن بذلك خروجه على المسيحية. وقد ظن أمير طرابلس ان فى استطاعته أن يجتنب الأمر المحتوم بايجاد حل وسط ينقذ به شروط معاهدته مع صلاح الدين ويخفف من وطأة الاصطدام بين المسلمين والصليبيين فسمح لأحدى طلائع جيش صلاح الدين بالقيام بمناورة سلمية فى

أراضى الفرنج بشرط أن تمر هذه الطليعة عند الفجر ثم تعود فتجتاز نهر الأردن قبل أن يرخى الليل سدوله وان لا تنزل فى طريقها أية خسارة ولا تهاجم أية مدينة من مدن اللاتين فعمل صلاح الدين بهذا الشرط .

ولكن مما يؤسف له أنه وقع فى تلك اللحظة ما لم يكن فى الحسبان ، إذ رأي الملك « غى » أنه من أنسب الامور اليه ازاء تهديد السراسنة أن يجمع شمل القوات اللاتينية ويوحد صفوفها باتفاقه مع أمير طرابلس وكان عندئذ فى طبريه . ولكنه أساء التصرف اذ بعث إليه بوفد يضم بين أعضائه « جيرار دى ريدفور » رئيس الهيكليين وعدو الامير اللدود . وانه لو تعمد احراج الموقف بأكثر مما كان عليه لما اختار لحظة للصلح مثل هذه اللحظة ولما انتدب رسولا غير هذا الرسول .

وما أن عرف جيرار دى ريدفور فى اليوم الثانى أن قوات صلاح الدين لا تلبث أن تجتاز الجليل للقيام بمناورتها حتى نادى فى جموع الهيكليين وسار فى مقدمتهم الى ملاقاة المسلمين فأدركهم فى صفورية . وكان المسلمون عندئذ — وفاقا لمعاهدتهم مع ريموند الثالث — قد قفلوا راجعين هادئين مطمئنين بعد انتهاء مناورتهم التى قاموا بها دون أن ينجم عنها أي ضرر ذى بال

للاراضى المسيحية (١)

وقد حاول الفرسان الهيكليون عبثاً أن يثنوا رئيسهم عن عزمه ويبينوا له حماقة عمله فى مثل هذا الظرف الحرج .

وألقى « جاك دي مابى » بنفسه على أقدامه وناشده أن يعدل عن مغامرته الجنونية فانحى الرئيس عليه باللائمة وأهانه بقوله : « انك تريد الاحتفاظ برأسك الجميل الأشقر فلذلك تخشى عليه أن يتحطم ! »

فرد عليه جاك دى مابى بأباء وشمم : « لسوف أقاتل حتى الموت كالفرسان أما أنت فسوف تلوذ بالفرار ! »

وهذا ما حدث فعلا . فقد خيل للرئيس انه لا محالة ظافر فهجم على رأس ١٥٠ مقاتلا من الفرسان والهيكليين هجوما عنيفا على السراسنة . وهم بضعة آلاف من الرجال . فاستولت عليهم الدهشة بادىء ذى بدء من ذلك الهجوم الفجائى ووقفوا منه موقف الدفاع ثم تحولوا الى الهجوم بدورهم وأعملوا السيف فى الصليبيين ولم يلبثوا أن فتكوا بقوتهم الصغيرة فتكا ذريعا

ومات « جاك دى مابى » كما يموت الابطال وكما تنبأ لنفسه وولى الرئيس الأدبار يصحبه ثلاثة من الهيكليين وهم الثلاثة الذين

---

(١) اسطورة الحروب الصليبية لجروسيه

نجوا من تلك الكارثة المشؤومة .

وصعق ريموند الثالث وانتابه الوجل عندما شاهد من أعلى قلعته فى طبريه جموع المسلمين وقد نكصوا على أعقابهم عائدين من صفورية فى طريقهم الى نهر الاردن وهم يهزون رماحهم تحليها رؤوس الهيكليين !

فازاء هذه الظروف القاسية وخصوصا ازاء يقينه من أن انقلابا عظيما لابد أن يحدث حتما نظرا لتلك الاعتداءات المتكررة وعلى الرغم من اشمئزازه ونفوره من « غى » الذى أساء اليه بعاقبة تصرفاته السيئة واخطائه المؤلمة ، على الرغم من هذا كله قبل أمير طرابلس أن يتصافى معه ويصالحه عساه أن يدرأ الخطر المحدق به فى تلك الساعة . ولم تكن الساعة لتتسع لعتب أو لوم أو نقاش تافه لا طائل تحته . واجتمع (غى دى لوسينيان) ملك القدس وريموند الثالث أمير طرابلس فى جنين واتفقا على حشد قواتهما المؤلفة من ألفى فارس و ٢٠ ألف مقاتل من المشاة وانضمت الى اولئك الجنود قوات رينو دى شاتيون وغيره من امراء اللاتين الذين كانوا يعيشون فى عزلة تامة بعيدا عن الملك (غى) ولم ينضووا تحت لوائه الا عقب اتفاقه مع ريموند الثالث وشعورهم بأن الخطر يقترب منهم ويهدد كيانهم جميعا .

وتم اندماج قواتهم فى الوقت المناسب إذ أن صلاح الدين كان قد اجتاح من جديد أراضى الجليل بقوات لا تقل عن قواتهم عددا وعددا . ووصل بزحفه الساحق حتى طبريه ، وقد قال المؤرخ جروسيه : (ان مدينة طبريه السفلى لم تقاوم اكثر من ساعة) . واجتمع الملك غى باعضاء مجلسه وكانوا جميعا يحبذون فكرة الزحف السريع على طبريه لمهاجمة صلاح الدين واسترداد المدينة منه

أما ريموند الثالث ، أمير طبريه ، فعلى الرغم من أن هذا العمل كان يهمه اذ ان فيه نجدة قلعته حيث كانت تقيم زوجته وأنجاله الاربعة فقد كان أول من عارض تلك الفكرة واذعن للتضحية وناشد الملك بأن لا يبتعد عن مواقعه المحصنة المزودة بمياه الصفورية وان يرقب عندها مجىء صلاح الدين وهجومه .

وبينما كان الامير يشرح للملك وجهة نظره ويبين له أن الطريق التى كانوا سيجتازونها لا تحوى نقطة ماء واحدة وأن جيادهم ورجالهم سيهلكون ظمأ وتعبا من حرارة شهر يوليو المحرقة . اعترضه رئيس الهيكليين بغيظ وحنق وأجابه بأن مثل تلك العبارات تنطوى على روح الهزيمة ويشتم منها رائحة الخيانة على ان ريموند ظل مصرا على معارضته وكاد ينجح فى حمل الملك على العدول عن مشروعه ،لو لم يتمكن رئيس الهيكليين

ورينو دى شاتيون بدهائهما من ادخال الشك فى ذهن الملك المتردد بتلميحهما بأن أمير طرابلس خائن لقضية اللاتين وأنه يريد أن يجلب العار عليهم ويحملهم على الوقوف مكتوفى الايدى لا يبدون حراكا كالجبناء. وهكذا استطاعا أن ينتزعا من الملك أمره بزحف جيش الفرنج.

ولم تلق مناشدات أمير طرابلس الاخيرة الا كل تردد من الملك ولم يقابلها الهيكليون بغير التهكم والسخرية. كان رئيس الهيكليين مستيقظا وكذلك حقده كان متيقظا. وكان ذلك سببا فى انكسارهم وهزيمتهم وتحققت نبوءات ريموند الثالث ومخاوفه مرحلة مرحلة. فما كاد الصليبيون يغادرون مواقعهم الرطبة فى صفوريه ليتغلغلوا فى الصحارى المقفرة جنوبى جبل طوران وشرقيه حتى وقفوا من جيش صلاح الدين موقفاً غير ملائم فذاك كان معسكراً عند شاطىء بحيرة طبريه فكانت حركاته والحالة هذه ترمى الى ابقاء جيوش الفرنج فى مواقعها الجهنمية المحرقة القاحلة.

وتحركت جيوش الفرنج فى ليل اليوم الثانى لشهر يوليو عام ١١٨٧ من صفوريه متجهة نحو طبريه. وفى مساء اليوم الثالث من شهر يوليو عسكرت قوات الفرنج لقضاء الليل على هضبة

حطين « لم يجد رجل بل ولم تجد دابة نقطة ماء ترتوى بها فى تلك الليلة الجهنمية » كما يقول المؤرخ أرنو .

وعندما بزغت شمس اليوم الرابع من شهر يوليو وألقت بأشعتها المحرقة على الفرسان ودروعهم الحديدية والفولاذية كانت جيوش صلاح الدين قد أحاطت بمواقع اللاتين وانتهز السراسنة فرصة هبوب ريح هوجاء حارة عاصفة وأضرموا النار فى الاعشاب والشجيرات التى أيبستها حرارة الصيف وبدأت معركة حطين فى جو خانق جهنمى .

وتتالت هجمات الفرسان وتتابعت فى وسط أعاصير من الرغام وتحت سيول من النبال . فكان الرجال المسلحون والمشاة ورماة النبال من الفرنج لا يتحركون إلا بمنتهى الصعوبة وقد عميت أبصارهم بالتراب والدخان .

وأدرك الملك « غى » خطأه المشؤوم اذ مارأي فظاعة الموقف ورهبته . فهجم مرتين عساه أن ينقذ شرف مملكته وشرف الفروسية اللاتينية . وفى هاتين المرتين وصل الفرسان الى قاب قوسين أو أدنى من المكان الذى يقف عنده صلاح الدين يحيط به أبناء أخيه وامرأته .

ووقع الهيكليون والمضيافون والفرسان فى الفخ الذى

نصب لهم فقاتلوا قتال اليائس وتمكنوا من وقف صدمة فرسان الكرد . وهنا ألقى صلاح الدين بجزء من احتياطيه فرجحت كفة المعركة . وكانت هزيمة الفرنج وفرسان اللاتين هزيمة شنيعة كاملة .

وعندما مالت الشمس الى الغروب صاح أحد الامراء من أتباع صلاح الدين أن الفرنج قد انهزموا فاجابه السلطان « لن نهزمهم ما دام علم مليكهم لم يسقط » . « وفى تلك اللحظة كما يقول شلومبرجر ، وقعت خيمة الملك [1] وكان ذلك بفعل مماليك صلاح الدين الذين شقوا طريقهم الى الامام والقوا بالخيمة على الارض دلالة على الانتصار » لم ينج غير قليل من الفرنج فقد هلك نحوا من ثلاثين ألفا وأسر ثلاثون ألفا[2]

وفى نهاية ذلك اليوم الحاسم ادخل على السلطان صلاح الدين وأوقف بين يديه رجل محدودب يرتعد عصبية ووجلا زائغ البصر تدل نظراته على الضعف الجثماني والألم المعنوي وخلفه حشد من الاسرى[3] ذلك الأسير هو « غي دي لوسينيان ملك القدس » .

---

١ ، ٢ ــ اقاصيص بيزنطه والحروب الصليبية لجروسيه

٣ ــ اسر المسؤولون الثلاثة عن الكارثة وهم غي دى لوسينيان وريتودى شاتيون وجيرار دى ريدفور الذين دفعت عدم كفاءتهم بالمسيحيين الى المجزرة . ولم يعرف كل من رئيس الهيكل المتكبر ولا الفارس اللص ان يلقى حتفا مجيدا (اسطورة الحروب الصليبية لجروسيه)

وقابل صلاح الدين الملك المهزوم وهؤلاء الأسرى المشهورين أمثال القائد أمورى الشجاع والفارس باليان . أمير ايبلان والكونت جوسلان ورئيس الهيكليين المتكبر ، مقابلة ملؤها الشهامة والكرم ، ولكن نظراته كانت ترمق شاتيون بحقد واحتقار

ودنا صلاح الدين من الملك « غى » وقاده بيده وأجلسه الى جانبه .

كانت نشوة الذعر قد تملكته حتى أن مفاصله كانت ترتعد فخاطبه السلطان برفق ولطف عسى أن يهدىء من روعه ثم قدم له كوبة من ماء الورد المرطب بثلوج لبنان التى تعود أن يحضرها سعاة السلطان من أقاصى لبنان على ظهور الجمال حتى معسكر السلطان بل الى قصره فى القاهرة ، وبعد ان ارتوى الملك « غى » ناول الكأس الى الامير « رينو » فجرعها عن آخرها فعتب السلطان على الملك بأنفة وشمم وقال له : « لم تستأذنى لأصرح بارواء ظمأ هذا اللعين الكافر ، فلست اذن ملزما بصيانة حياته » .

« قال ذلك بالنظر الى عادات العرب التى تقضى بالمحافظة على حياة أسير اذا هو شرب أو أكل على مائدة آسره (١) »

ومرت برهة صمت رهيب على الحضور ، ثم ارتفع صوت

---

١ ـ شلومبرجر

صلاح الدين مزعجا رهيبا . وخاطب أمير الكرك وعاتبه على خياناته وسوء تصرفاته وسرقاته وجـرائمه واتهمه بأنه السبب الأول فى تلك الحرب واتهمه أيضا بأنه كان السبب بفضل اخطائه فى شقاء عدة امراء وآلاف من الابرياء .

واستطرد صلاح الدين قائلا : « كم من مرة أقسمت فحنثت فاجابه أمير شرق الاردن بوقاحة ان تلك هى عادة الملوك [1] »

قال صلاح الدين : « لقد اقسمت مرتين بأن اقتلك اذا ماتمكنت من شخصك ، أما الأولى فعندما أزمعت السير على مكة والمدينة ، وأما الثانية فعندما غدرت بقافلة مكة » .

عندئذ هوي صلاح الدين بسيفه على شاتيون فقضى عليه ووقع نظره على الملك « غى » وهو يرتعش هلعا فهدأ من روعه وقال له : « لا يقتل الملك ملكا » .

وقد أجمع المؤرخون على أن هذا العمل هو العمل الوحيد القاسى الذى ارتكبه هذا الايوبى العظيم .

لم يتجه صلاح الدين فى الحال الى القدس عقب انتصاره الباهر فى حطين بل استولى اولا على مدينة عكا فى العاشر من شهر يوليو ومدينة حيفا فى العشرين منه ومدينة بيروت فى السادس من

---

١ - جروسيه

شهر أغسطس ثم على سائر موانى لبنان .

وكان صلاح الدين قد وعد باطلاق سراح الملك غى فى نظير تسليم معاقل الفرنج الاخيرة . فقام رئيس الهيكليين وغى وكانت حالته عندئذ تدعو الى الشفقة ، بدور الوسيط بين السلطان وامراء اللاتين . فرافقا جيوش الاسلام ولما وصلا الى عسقلان ناشدا المدافعين عنها التسليم فقوبلا منهم بسيل من الاهانات والسب . ولم تستسلم عسقلان الا فى السابع من شهر سبتمبر بعد أن قاومت الحصار وهجمات المغيرين عليها شهراً بأكمله وغادرها صلاح الدين قاصدا مدينه القدس .

وقبل ان يتوجه السلطان الى المدينة أطلق سراح باليان أمير « ايبلان » .

كان باليان كغيره من أمراء اللاتين تربطه مع أمراء المسلمين أواصر المودة والصداقة . وكان صلاح الدين يقدره بوجه خاص بسبب أخلاقه النبيلة وطبيعته الهادئة . فارسله الى القدس للمحافظه على سلامة « مارى كومنين » أرملة أمورى الأول وملكة القدس السابقة التى عقد عليها أمير ايبلان قرانه فى حفلة زواج ثان .

وعند وصوله الى القدس وجد باليان الشعب فى حالة هلع

ورأى البطريرك هيرقليوس ذلك السياسى الحقير الجشع يبث روح الهزيمة فى الشعب باسلوب غير جدير بالمدافعين البواسل عن المدينة، كما أنه لاحظ ان البيزنطيين يودون خدمة السلطان بدافع الحقد والضغينة نحو اللاتين، جميع هذه العناصر المتنافرة المنشقة على بعضها هى التى حاول أمير ايبلان توحيدها وتنظيمها للدفاع عن القدس فلما وصل صلاح الدين إلى أسوار المدينة المقدسة فى العشرين من شهر سبتمبر ألفاها على قدم الاستعداد للمقاومة والدفاع على الرغم من أنه كان يرغب رغبة اكيدة ملحة فى اجتناب دمار الحرب وويلات الحصار لها. وخليق بالتاريخ أن يشهد بشدة عزم اولئك المدافعين عن المدينة بعد اذ أبوا أن يبيعوا شرفهم بغير قتال ويستسلموا بغير مقاومة ولا نضال.

وقد أمر صلاح الدين بمهاجمة المدينة بعد أن رفض المدافعون انذاره الاخير لهم بالتسليم.

وقاوم الفرنج مقاومة عنيفة بل وقد تمكنوا من القيام بهجوم مضاد فى بعض المراكز على أن جنود فرق الهندسة المصرية تمكنوا — تحت حماية آلات المنجانيق — من احداث ثغرة فى أسوار المدينة فاستقر رأي الفرسان وأفراد الشعب أن يتحاشوا تطبيق قانون الظافر عليهم بأن يحاولوا الخروج تحت

جنح الظلام عسى أن يشقوا لانفسهم طريقا أو يموتوا فى حومة الوغى، على أن البطريرك هيرقليوس أثناهم عن عزمهم [1].

فلما رأي أمير ايبلان ان لا فائدة ترجى من المقاومة طلب مقابلة السلطان وفاوضه بشأن تسليم المدينة اليه على أن يترك لسكانها حق التمتع بحريتهم. فطبق صلاح الدين التقاليد المرعية فى ذاك العهد وحدد عشر وزنات لافتداء الرجل وخمسا مثلها لكل امرأة. على أن الامر انتهى بقبول السلطان قدرا معينا لافتداء جميع السكان.

ويشاء سوء الحظ — على حد قول المؤرخ جروسيه — أن يحول بخل وقسوة الهيكليين والمضيافين الذين لجئ اليهم لجمع المال اللازم — دون انقاذ جميع الاسري فاخلى سبيل سبعة آلاف وظل فى الأسر ستة عشر الف مسيحى لم تدفع جزيتهم. بل ليت الامر كان قاصرا على ذلك إذ أن الاهالى أرغموا زعيم الهيكليين على أن يقدم هذا الجزء من المال بأن هددوه بتسليم كنوزه الى السلطان.

أما صلاح الدين فقد كان على نقيض ذلك اذ نفذ جميع تعهداته بكل اخلاص وشفقة وشهامة مما أثار اعجاب المؤرخين

---

١ — جروسيه

الملاتين ودهشتهم .

وقد وضع صلاح الدين حدا لمساومة الهيكليين المشينة فاخلى سبيل ١٥٠٠ مسيحى من الفقراء ، وافتدى شقيقه العادل[١] ألف مسيحى بأن دفع جزيتهم ثم حررهم فى الحال . وحذا امراء المسلمين حذو الشقيقين ودفعوا من دراهمهم الخاصة فدية اولئك الذين لم تفتد حريتهم بسبب بخل الهيكليين وقسوة قلوبهم .

واذ كان البطريرك هيرقليوس يحاول تهريب الطنافس الثمينة والاوانى الذهبية المرصعة بالجواهر وملابس الهيكل المطرزة بالذهب — أسر مستشار صلاح الدين وهو المؤرخ عماد الدين الى مولاه بأن تلك الكنوز انما تعتبر أموالا ثابتة . لذلك يجب أن تظل فى مكانها . واقتنع السلطان بفكرة مستشاره ولكنه فضل ان يتغاضى هذا الامر على ان يثير مناقشات قضائية مع هيرقليوس الذى كان صلاح الدين يحتقره كل الاحتقار .

فأخذ المسلمون عندئذ بترحيل المهاجرين . وأمر السلطان احدي فرق الشرف بمرافقة ملكتى القدس مارى كومنين وسيبليا والاميرة اتيينيت أميرة شرق الأردن وجميع النساء اللواتى رغبن

---

(١) « سفادان » على حد تعبير المؤرخين اللاتين هو سيف الدين وقد قضى حياة « رومانتيكين ».ملأى بالمغامرات وكاد يتزوج الأميره جان شقيقه الملك ريكاردوس قلب الاسد وقد احبته واغرمت به

فى مغادرة المدينة بعد تسليمها حتى مدينتى صور وطرابلس .

ثم وزع صلاح الدين اللاجئين على قافلتين قامت قواته بحراستهما لحمايتهما من غارات لصوص البدو . وقال المؤرخ « ارنو » انه عندما كان الفرسان المسلمون يشاهدون امرأة أو طفلا لاتينيا أنهكه التعب كان يترجلون ويحلون الاطفال محلهم على ظهور جيادهم ويرافقونهم مشيا على الأقدام وهم قابضون على الرسن وقد سلم بعض اللاجئين الى امراء اللاتين فى ساحل طرابلس فلم يتورع هؤلاء الامراء عن استغلالهم واستخدامهم بغير ما حياء ولا خجل .

وتمتع اللاجئون الآخرون ممن قدموا مصر وآووا الى منازل الاسكندرية بحماية السلطان ورعايته « وقد أمر صلاح الدين بان يصرف من أمواله الخاصة بسخاء على السيدات الأرامل والعذارى اليتيمات . فاغدقت عليهن النعم حتى كن يحمدن الله وتلهج السنتهن بالثناء على كرم صلاح الدين ومكارم اخلاقه(١) » .

ولاقى اللاجئون الفرنج فى الاسكندرية فى سبيل ترحيلهم الى أوروبا متاعب جمة ومعاكسات شتى من مواطنيهم وأبناء دينهم يالها من مآسى مؤلمة ربما كانت مهازل مضحكة لو لم تكد

---

(١) تاريخ ارنو

تتطور الى فاجعة محزنة دون تدخل صلاح الدين .

وفاوضت سلطات الاسكندرية الاسلامية ربانية سفن « البندقية » « وجنوا » الراسية فى الميناء فى سبيل نقل اولئك اللاجئين من القدس الى بلادهم ، على أن الربانية أبوا اباء قاطعا ورفضوا أن يضايقوا أنفسهم بحمل أناس لا يملكون شروى نقير ، واستغرقت تلك المباحثات والمفاوضات وقتا طويلا بغير ما جدوى ، وعندئذ تلقى قاضى الاسكندرية أمرا من صلاح الدين بمصادرة السفن وذلك لاكراه الربانية على ترحيل اللاجئين فأذعن الربانية مرغمين ولكنهم أضمروا التخلص من ركابهم فى أحد السواحل المقفرة .

وقال المؤرخ جروسيه أن الموظفين المصريين لما علموا بما أضمره اولئك الربانية من سوء القوا عليهم تبعة عماهم وعدوهم مسئولين شخصيا عن حياة هؤلاء المهاجرين

وفى النهاية أصدر القاضى أمره بالقاء القبض على بعض الربانية وزجهم فى ظلمات السجن . عندئذ أذعن الربانية وقبلوا أن ينقلوا اللاجئين التعساء خوفا من أن يثيروا غضبة صلاح الدين فينقض معاهداتهم التجارية .

وفى ٢٧ رجب ٥٨٣ الموافق ٢ اكتوبر ١١٨٧ وهو

يوم ذكري الاحتفال السنوى بالمعراج دخل صلاح الدين الايوبى مدينة القدس دخوله التاريخى المشهود .

وخلافا لما كان عليه مسلك جودفروا دى بويون والصليبيين الذين ذبحوا إبان دخولهم القدس عام ١٠٩٩ عشرة آلاف مسلم من المسلمين اللاجئين فى مسجد عمر فضلا عن اليهود والمسيحيين المنشقين وقد مثل بهم أشنع تمثيل الى حد لم يتمالك معه غليوم رئيس أساقفة صور دون إظهار ألمه العميق وابداء لومه بقوله :

« كانت المدينة تمثل منظر مذبحة مخيفة رهيبة والدماء تسيل أنهارا بحيث أن الظافرين أنفسهم قد تملكهم الذعر وهاج شعورهم اشمئزازا ! » .

وخلافا لما أتاه محمد الثانى فيما بعد عند دخوله القسطنطينية دخول الفاتح الغاشم عام ١٤٥٣ . اذ فتك جنوده من الانكشارية بالاهالى الابرياء بعد أن افقدهم انتصارهم وعيهم وشعورهم الانسانى . وخلافا لما فعله سواه من الغزاة الذين يزخر التاريخ بذكر الامثال العديدة عن طغيانهم وفظائعهم . سواء أكان خلال فتوحاتهم أو بعدها — لم يبد الايوبى العظيم أي مظهر من مظاهر البذخ والانانية ولم يستسلم لاية عاطفة دنيئة ولا لأي تعسف أو ظلم .

لقد كان يقدر مكانته التاريخية حق قدرها فرد للاسلام علنا الحرم الشريف الذى عاد الى ما كان عليه أى « جامع عمر » ورد معبد سليمان أو معبد الهيكلين فاصبح الجامع الأقصى واستردت المآذن مكانها فى مدينة القدس .

وعندما خر صلاح الدين ساجدا وأحنى رأسه الملكى أمام الخلاق العظيم تحت قبة جامع عمر بن الخطاب كان يعلم أنه لم ينته من الدفاع عن الاسلام والشرق وأن الحرب لم تضع اوزارها بعد اذ أن معدات الحرب الصليبية الثالثة كانت تجهز فى أوروبا .

وكانت تلك الحرب الصليبية الثالثة ستوقف فى وجهه أشد الخصوم وأشجعهم وأكثرهم اقداما وأبعد أمراء الغرب شهامة وهو : ريكاردوس ملك الانجليز .

ان تلك الحرب الضروس وما لازمها من المواقع الفتاكة والمغامرات الخرافية والمواقف المجيدة والحوادث المفجعة وجميع ما وقع من الاحداث القصصية وأعمال البطولة والآمال التى لم تتحقق واليأس العميق الذى استولى على النفوس وكذلك فشل الحملة الصليبية الثالثة فشلا تاما ، كل ذلك أشهر من أن يجهله امرؤ ولا حاجة بنا الى تكراره وسرده .

على أن هناك أمرا فى حياة صلاح الدين ربما ظل مجهولا

ولكنه يصف أخلاقه بأكملها وصفا دقيقا حقيقيا بما تجلت من عظمة وما انطوت عليه نفسه من نزاهة شخصية . اسمح لنفسى بأن أعبر عنها بانها نزاهة راقية ، أما هذا الأمر فهو أن صلاح الدين مات فقيرا . وقد يدهشكم هذا التعبير بلا شك ؟ ولكنه الحقيقة بلا ريب أو تثريب .

وقد يخيل اليكم — على حق — ان السلطان العظيم المخيف الذى حكم مصر وسوريا وفلسطين وبطل الحروب الصليبية وفاتح شتى المدن والبلاد قد جمع الكنوز المكدسة وقطف ثمار فتوحاته الواسعة . هذا الاحتمال قد يتطرق الى الذهن ولكنه فى الواقع لم يحدث .

فاصغوا الى ما كتبه هيوارت المؤرخ الاوروبى الكبير المبدع فى كتابه « تاريخ العرب » بأسلوبه الشيق الممتع عن نهاية صلاح الدين : « عندما قضى صلاح الدين نحبه فى دمشق فى الرابع من شهر مارس عام ١١٩٣ (فى يوم الجمعة ٢٧ صفر ٥٨٩) بعد حملة الصليبيين الثالثة ولما يبلغ الخمسين من عمره لم يترك فى خزينته الخاصة سوي ٤٧ درهما من الفضة اذأن كل ما كانت تحويه صرف فى سبيل الحرب وكان على أخته ست الشام (سيدة الشام) أن توزع من أموالها الخاصة الصدقات والاحسان عند تشييع جنازته[١]

---

١ – تاريخ العرب لهيوارت الجزء الثانى صفحة ٢٧

الحديث التاريخي السابع

المترجمون اللاتين واليهود فى القرون الوسطى — مدرسة الترجمة التى أسسها ريموند رئيس الاساقفة فى طليطلة ابان القرن الثانى عشر — المدرسون العرب بمدرسة فرنسا فى القرن السادس عشر — « بيير فاتييه » المستشرق مترجم دوق أورليان وطبيبه الخاص — عناية فرنسا بالآداب العربية فى القرن الثامن عشر

الخاتمة

لقد حاولت فى حديثى الاول أن أقص عليكم ما يدين به العالم للعرب . فقلت لكم ان الغربيين وجدوا فى القرون الوسطى باعتراف علمائهم واقرارهم جزءا من العناصر الاولى التى قامت عليها دعائم نهضتهم وثقافتهم فى حضارة وعلوم العرب الذين عربوا معظم مؤلفات قدماء الاغريق العلمية وتتلمذوا عليهم ونسجوا على منوالهم فواصلوا أعمالهم ونبغوا فيها .

ويقول لنا المؤرخ الفرنسى « هيوارت » ان اوروبا لم تقف فى القرون الوسطى على العلوم المنتشرة فى الشرق الا عن طريق المترجمين وقد كانت معظم تراجمهم باللغة اللاتينية وهى اللغة العلمية الوحيدة التى كانت أكثر انتشارا فى ذاك العهد .

وقد لعب الرهبان المقيمون فى الشرق وبعدهم يهود اسبانيا وصقلية الذين اعتنقوا الدين المسيحى دوراً هاما فى رواج تلك التجارة الفكرية والعلمية اذ كانوا يقومون بدور الوسيط أو دور حلقه الاتصال بينها وبين الراغبين فيها ممن تصبو نفوسهم اليها .

أما العلوم التى استرعت اهتمام المترجمين بوجه خاص فكانت علوم الطب والحساب والبصر « المناظر » والفلسفة والفلك .

وأول من بلغنا خبره من المترجمين أو الناقلين راهب قرطجنى يدعى قسطنطين الافريقى طاف الاقطار الشرقية زمنا طويلا حتى استقر به المقام فى النهاية عام ١٠٦٠ فى دير « مون كسيس » بمدينة « سالرن » حيث ترجم عن اللغه العربية مؤلفات ابقراط وجالينوس وكتاب « كامل الصناعة » لعلى بن عباس وكذلك مؤلفات احمد الجزار .

وهناك مترجمون عديدون عملوا على نشر مصنفات

العرب فى الغرب نخص بالذكر منهم :

ــ افلاطون الطيبورى وقد أقام فى برشلونه حيث تعرف على كاتب يهودى يدعى ابراهيم الملقب « بسافازوردا » أى صاحب الشرطة ، فتعاون معه على البحث والتنقيب مدة ٢٢ سنة من عام ١١١٦ حتى عام ١١٣٨ وكان ابراهيم « سافازوردا » قد وضع باللغة العبرية والعربية بحثا فى الهندسة فنقله افلاطون الى اللاتينية فكانت ترجمته هذه بمثابة الاساس الذي استند اليه « ليوناردو فيبوناتشى » من مدينة بيزا فى تصنيف مؤلفاته وكان هذا الأخير أول من وضع العلوم الهندسية فى متناول الغرب وعمل افلاطون وابراهيم على نشر مؤلفات العرب فى الغرب وأخصها : « كتاب النبض » لحنين بن اسحاق ومؤلفات مختلفة لابن الخياط وعلى بن احمد العمرانى الذى حرف الغربيون اسمه فسموه « هالى بن هاهاميت انبرانوس » . وقد ترجما فضلا عما تقدم بحثا لابن التبانى فى حركة الاجرام نشر فى مدينة نورمبرج عام ١٥٣٧ ثم فى مدينة بولونى عام ١٦٤٥ .

« يوحنا الاشبيلى » وقد ولد فى طليطله من أبوين يهوديين والتحق بصفة مترجم فى هيئه المترجمين التى انشأها المونسنيور ريموند رئيس اساقفة طليطله ، فوضع باللغة اللاتينية عام ١١٤٢

ــ استنادا الى تآليف العــرب ــ بحثا فى علم الفــلك سماه *Epitome Totuis Astrologiæ* وقد طبع و نشر عام ١٥٤٨ . ثم عهد اليه بأن يترجم من العربية الى اللاتينية بحثا فى صيانة الجسم البشرى وهو بحث استخرجه من مؤلفات يحيا بن البطريق الذى نشر كتابه (سر الأسرار) فى مدينة هال عام ١٨٨٢ . واشترك كذلك مع جيرار الكرمانى فى ترجمة مؤلفات ابن سينا الى اللاتينية وهى مؤلفات طبعت عام ١٤٩٥ . كما ساعد على ترجمة كتاب (احصاء العلوم) للفارابى وقد تولى كاميراريوس طبعــه فى باريس عام ١٦٣٨ .

وتدين أوروبا لهيئة الترجمة العربية اللاتينية التى انشأها رئيس الاساقفة ريموند فى طليطــلة ابان القرن الثانى عشر (١١٣٠ ــ ١١٦٠) بتراجم كاملة أو جزئية وابحاث وتعليقات ونبذ لمؤلفات العرب الادبية والعلمية التى لا تنضب أو بالاحرى ما لم تتلفه منها محاكم التفتيش الهمجية المتعصبة . ونحن لا يسعنا طبعا أن نذكر هنا الا بعض هذه التراجم الشهيرة مثل « ملخص علم الفلك » للفرغانى (وهى طبعة نادرة نشرت فى مدينة فرارى عام ١٤٩٧) « ومقاصد الفلاسفة » للغزالى وقد نشر عام ١٥٠٦ ــ وكتاب الارصاد لابى على يحيا بن الخيــاط الذى حرف

الغربيون اسمه فعرف عندهم باسم « البوهالى » وقد نشر هــذا الـكتاب باللغة اللاتينية لأول مرة فى مدينة نورمبرج عام ١٥٤٩ ثم كتاب « الحساب » للخوارزمى أو علم العدد وقد كتب باللغة اللاتينية لأول مرة وطبــع فى روما عـام ١٨٥٧ باسم *Liber Algorismi* وترجمة علم الفلك وكتاب الاتصالات الكبرى لأبى معشر وهى كتب صدرت باسم المترجم هرمان الدالماسى فى مدينة اوجسبورج عام ١٤٨٩ ثم فى البندقية عام ١٥١٥ . أما مؤلفات أبى الحسن على بن رضوان الذي ولد فى الجيزة ونشأ فى القاهرة فقد نقلها مترجمون مجهولون ونشرت فى البندقية عـام ١٤٨٤ وعام ١٤٩٦ وهى (كفاية الطبــيب) وكتاب فى التشخيص وكتاب الاصول فى الطب .

ونقل « أبلارد دى باث » الى اللغة اللاتينية من عام ١١٢٠ الى عام ١١٣٠ مقدمة علم الفلك لابى معشر و (الجداول) لمحمد بن موسى الخوارزمى وكذلك كتاب (العناصر) لاوكليدوس الاسكندرى (طبعة عربية) .

وفى عام ١١٢٧ ترجم أسطفان الانطاكى الى اللاتينية كتاب

---

١ – يعرف ابو معشر فى الغرب باسم بوليشار

« كامل الصناعة » لعلى بن عباس (طبع فى البندقية عام ١٤٩٢) وانتقد فيه انتقاداً لاذعا قلة الدقة التى أتاها قسطنطين الافريقى فى ترجمة هذا المؤلف .

وكان « روبير ريتينسيس » رئيس أساقفة بامبلون الملقب (بانجليكوس) وهو من أصل انجليزى أو ساكسونى أول من ترجم فى عام ١١٤٣ القرآن الكريم الى اللغة اللاتينية باسم (المذهب المحمدى) على أنه تعمد فيه التحريف والتشويه ونشره فى مدينة بال عام ١٥٥٠ .

وترجم « موريينوس رومانوس » وهو راهب من دير « كليرفو » الجداول الفلكية لابن التبانى ومؤلفاً فى علم الكيمياء طبع عام ١٥٦٤ باسم (*Transfomatone Mettalorimino*) أى تحويل المعادن .

وعندما كان الراهب رومانوس فى سيجوريا ترجم الى اللاتينية نشرة للخوارزمى باسم *Liber Restaurationis Goppositionis Numerii* أى ما معناه باللغة العربية « الجبر والمقابلة » .

وترجم هرمان المدرسى الاسكلافونى كتاب « تحويل العلم » وهو يتضمن أبحاثا فى الارصاد لسهل بن بشر المعروف عند الغربيين باسم زاييل بن بكسير .

وترجم « رودولف » تلميذ هرمان الدالماسي كتاب الكرويات لمسلمه وليس جالينوس الا ابن غالب وهو عربى من طليطلة ساعد (دانييل دى مورليه) على ترجمة أبحاث بطليموس [1] الى اللاتينية من عام ١١٧٥ الى عام ١١٨٧ وكان دانييل الذى ولد فى كنتربرى انجليزى الاصل تلقى علومه فى اكسفورد ثم سافر الى طليطلة فى اسبانيا لاستكمال معارفه فى الحساب عند عرب الأندلس .

وقضى جيرار الكرمانى زمنا طويلا فى طليطلة وقرطبة . ثم قفل راجعا الى مسقط رأسه فى كريمون حيث توفى عام ١١٨٧ عن ٧٧ سنة وقد ترجم هذا الكاتب الذي لا يعرف الكلل « الذهن وخواص العناصر » لاسحاق بن حنين وطبعت تراجمه فى فينا عام ١٤٩٢ . وترجم كذلك مؤلفاته حجاج بن يوسف والمؤلفات التى وضعها جابر الاشبيلى فى علم الفلك وكتاب الاقواس المتشابهة فى الهندسة لابن الداية والقانون لابن سينا وهو كتاب نقله الى اللغات الاجنبية أكثر من خمسين مترجما وطبع أكثر من ثلاثين طبعة منها خمس عشر طبعة قبل عام

١ـ كلوديوس بطليموس فلكى يونانى من مدرسة الأسكندرية ولد فى بلدة كانوبس بمصر فى القرن الثاني بعد المسيح

١٥٠٠ [١] وترجم تحت عنوان *Liber Trium Fratrum* أى (كتاب الاشقاء الثلاثة).

وهو بحث فى مقياس الاشكال المسطحة والكروية وضعه الأشقاء الثلاثة المشهورون فى علم الحساب وهم محمد واحمد وحسن أولاد موسى بن شاكر. وقد نشر هذه الترجمة فى مدينة هال عام ١٨٨٥ المسيو كورتز فى مجلة (*Acta Nova*) التى يصدرها معهد العلوم الطبيعية فى المانيا.

وفى عام ١١٩٨ ترجم *Johannes Tétra Pharmacos* كتاب *Manuel des Antidotes* للزهراوى الذى نجهل سبب تسميته «بالبوكسيس».

وترجم ميشيل سكوت أو سكوتوس من مقاطعة «فيف» باسكتلندا، بناء على طلب الملك ادوارد الاول ملك انجلترا كتاب «التعليقات» لابن رشد وسماه *De Cœlo & Mundo* وكذلك كتاب (التلخيص) لنفس الفيلسوف وملخصا لكتاب علم الحيوان لابن سينا وقد نشرت هذه التراجم عام ١٤٧٣

---

١ ــ يعد «البارون كارادى فو» استاذ اللغة العربية فى معهد فرنسا من اشهر المترجمين المعاصرين لابن سينا. أما مؤلفاته «ابن سينا» و«الغزالى» و«ملخص العجائب» وهو كتاب نقله عام ١٨٩٦ من المخطوطات العربية الموجودة فى مكتبة باريس الأهلية فقد أحرزت شهرة عالمية

وترجم اسطفان السرقسطى من أهالى مدينة لريده عام ١٢٣٣ كتاب البسطاء لابن الجزار الذى حرف الغربيون اسمه فلقبوه (بن زيزار) وتوجد مخطوطات هذه الترجمة فى مكتبة مونيخ .

أما هرمان الالمانى الذى كان فى عام ١٢٨٠ استاذا لروجيه با كون فقد لجأ عام ١٢٦٠ الى مساعدة المترجمين المسلمين لنقل كتاب ـ علم البيان ـ لابن الفارابى وطبعه فى روما عام ١٥١٥

وفى عام ١٢٥٥ ترجم يهودي يدعى بونا كوزا بعنوان كتاب « الكليات » الشهير الذى وضعه ابن رشد فى الطب . وقد نشرت ترجمة هذا المؤلف النفيس القيم فى البندقية عام ١٤٨٢ ثم فى ستراسبورج عام ١٥٣١ .

ونقل يهودا بن موسى وهو طبيب يهودى من طليطله الى اللغة الاسبانيه مؤلفات عبد الرحمن الصوفى منها فهرست « الكواكب » ومؤلفات على بن أبى الرجال وطبعها عام ١٨٨١ .

وقد عزى الى روبير انجليكوس أو الأنجليزى ترجمة كتاب الفيلسوف الكندى أما الترجمة فتحمل الاسم اللاتينى :

[De Judiciis]

وفى عام ١٢٨٠ ترجم « بارا فيسيوس » وهو طبيب من البندقية كتاب « التيسير فى المداواة والتدبير » لأبى مروان

عبد الملك بن أبى العلاء بن زهر الاشبيلى . وقد أعيد طبع هـذا
الكتاب الطبى عدة مرات منذ طبعته الاولى فى البندقية عام ١٤٩٠

وترجم فرج بن سالم الجرجنتى الذى سماه الغربيون تارة باسم
فاراتشى وتارة أخرى باسم فرجوت وفـراروم . كتاب الطب
العملى لابن حنين والتقـويم لابن جزله وذلك بناء على طلب
شارل دوق انجو [1] بعد عام ١٢٧٩ وقد جاء فى مذكرة ارفقت
بالكتاب الاخير أن الترجمة انتهت فى اليوم الثالث عشر من
شهر فبراير عام ١٢٧٩ .

وترجم أرمان دي فيلنوف الذي توفى فى برشلونه عام
١٣١٤ كتاب القلب لابن سينا وكتاب الاغذية لابن زهر
وقد نشرت ترجمة هذين المؤلفين عام ١٦١٨ باسم المترجم .

وترجم كالونيمـوس الكاتب العبرى بنـاء على طلب
روبير دوق انجو تحفة التحف وهو ما كتبه الغزالى فى نقد
ابن رشد ويوجد من هذا السفر الجليل عدة مخطوطات فى
مكتبة الفاتيكان . وقد تم وضع هذه الكتب فى مدينة آرل عام
١٣٢٨ ونشرت فى البندقية عام ١٤٩٧ و ١٥٠٨ .

---

١ ـ كان شارل دوق انجو (١٢٢٦ ـ ١٢٨٥) شقيق لويس التاسع ملك فرنسا
(القديس لويس) ملكا على نابولى وقد فقد جزيرة صقلية على أثر مذبحة الفرنسيين المعروفة

وقد ورد ذكر نقولا ماسا وهو طبيب من البندقية توفى عام ١٥٦٩ — فى الطبعة اللاتينية من كتاب القانون لابن سينا، وكان ذكره بصفته مترجماً لحياة ذلك الفيلسوف الشهير التى وضعها، سورسانوس، أى ابو عبيد الجوزجانى تلميذ الاستاذ الأعظم.

ولما جاء عهد النهضة الادبية وبدد ظلمات القرون الوسطى لم يقف سير أعمال الترجمة، فقد أصبحت هذه التراجم على نقيض ما كانت عليه أشد ضرورة واكثر نفعا بانتشار اللغة اللاتينية بين الطبقة المثقفة أى بين رجال الدين وأمراء أوروبا الذين كانوا من هواة جمع الكتب النادرة والمؤلفات القيمة وساعد تقدم فن الطباعة ورقيه على تعميم عدد كبير من المؤلفات التى ترجمت فى القرنين العاشر والحادى عشر وظلت من المخطوطات حتى ذاك العهد.

وساعدت المدرسة المارونية التى أنشأها البابا غرينوريوس الثالث عشر عام ١٥٨٤ فى روما — حيث كان اكثر من عشرين شابا يتلقون العلوم الشرقية — على نشر اللغة العربية فى الاوساط الثقافية. وقد تخرج من هذه المدرسة ثلاثة أشخاص افذاذ هم: جبرائيل الصهيونى وابراهيم اكسلينسيس *Abraham Echellensis*

ويوسف السمعانى .

ولد أولهم وهو جبرائيل الصهيونى فى اهدن بارز لبنان نحو عام ١٥٧٧ وشغل منصب أستاذ اللغتين العربية والسريانية فى مدرسة الحكمة بروما ، ثم دعاه الملك لويس الثالث عشر ملك فرنسا بناء على توصية « سافارى دى بريف « Savary de Brèves » للتعليم فى مدرسة فرنسا والقيام بمهام السكرتير المترجم فى عام ١٦١٤ . ولما رأى الكردينال دى ريشيليو انه لا يعجل فى التراجم التى يعهد بها اليه وفقا لرغبته أمر بوضعه فى برج قصر فانسين حيث ترجم للكردينال فى مدة لم تتجاوز ثلاثة شهور كتاب « الجغرافية » للادريسى . وقد نشرت فى باريس عام ١٦١٩ باسم Geographia Nubiensis وبعد ان اشترك جبرائيل فى ترجمة الكتاب المقدس (التوراه) الذي نقل الى عدة لغات قضى نحبه فى باريس عام ١٦٤٨ .

أما الثانى وهو ابراهيم اكسلنسيس واسمه العربى الحقيقى ابراهيم الحاقلانى فقد ولد فى بلدة حاقل بمديرية جبيل بلبنان وبعد أن تلقى علومه فى روما حيث درس الفلسفة سافر الى باريس وعين استاذا فى مدرسة فرنسا عام ١٦٤٦ ، وقد ترجم كتاب « التاريخ » لابن الراهب المصري ، وفى عام ١٦٥٠

نشر باللغة اللاتينية نبذة عن تاريخ الفلسفة العربية بعنوان
Synopsis Propositorium Sapientiæ Arabum وقد توفى فى روما
عام ١٦٦٤ .

وكان الثالث وهو جوزيف اسمانى . واسمه العربى
يوسف السمعانى من أسرة أصلها من قرية حصرون بلبنان
ولكنه ولد فى طرابلس الشام عام ١٦٨٧ ، وقد عهد اليه
البابا كليمان الحادي عشر بوضع فهرست للمخطوطات العربية التى
كان الكرسى البابوى قد حصل عليها حديثا . وكلفه كذلك فيما
بعد عام ١٧١٥ بأن يأتى من سوريا ومصر ببعض المخطوطات
التى تألفت منها العناصر الأولى التى أنشئت على أساسها المكتبة
الشرقية الشهيرة فى الفاتيكان . وعين البابا كليمان الثانى عشر
يوسف السمعانى مديراً لمكتبة الفاتيكان وخلع عليه الملك
شارل الرابع ملك نابولى لقب مؤرخ مملكة الصقليتين وتوفى
نيافة الكردينال السمعانى فى روما عام ١٧٦٨ تاركا خلفا له احد
أبناء أشقائه وهو يوسف الياس السمعانى الذي تولى بعده تدريس
اللغتين العربية والسريانية .

وقد أنجب القرن السابع عشر اماما من ائمة المترجمين الذين
عرفهم الغرب فى شخص ذلك المستشرق العلامة وهو (بييرفاتييه)

طبيب دوق اورليان ، وترجم بيير فاتييه كتاب التاريخ لابن الماكين عام ١٦٥٧ ثم المنطق لابن سينا عام ١٦٦٠ والأمراض العقلية لابن سينا أيضا عام ١٦٦٢ والانتقادات العلمية لعبد الرحمن بن ناصر (أو *Gabdorochoman* كما يسميه الكتاب اللاتين) عام ١٦٦٤ . كما أنه ترجم كتاب مصر لمرتضى بن عفيف عام ١٦٦٦ . وقد توفى بيير فاتييه فى مدينة روان بفرنسا عام ١٦٦٨ .

وببزوغ فجر القرن الثامن عشر فى أوروبا وفى فرنسا خصوصا — فرنسا التى لم تقدر ثقافة العرب وحضارتهم فحسب بل وقفت على روح الشرق العميقة وسبرت غورها ، بدا عامل جديد فى أوروبا أو اذا شئت فقل ان موجة جديدة طغت عليها فدفعت بالغربيين الى الاقبال على العلوم الشرقية ودرسها وهكذا تسنى لهم أن يعرفوا كتاب العرب معرفة حقيقية بقراءة مؤلفاتهم ومصنفاتهم ويكونون عنهم فكرة واضحة ليستعيضوا بها عن تلك الفكرة الغامضة التى كانت راسخة فى أذهانهم من جراء مطالعة التراجم اللاتينية المشوهة .

وتريد النواميس الطبيعية الا يكون هناك جديد على وجه الارض وان يرجع كل شىء الى منبعه الاصلى . ففى عالم المدنية

مثلا أو فى عالم الثقافة فان من جاء من الغرب الى الشرق ليس الا ما أخذه الغرب عن الشرق اللهم الا اذا نحن استثنينا مدنية خاصة هى مدنية استعمال الملابس القصيرة (الشورت) وتناول الكوكتيل وسماع الجاز باند واستعمال الغازات الخانقة والمبادىء العقيمة والكلمات الجوفاء . ومعنى هذا أن الاغريق أخذوا عن مصر إذ هى أقدم منهم عهدا بآلاف السنين وان العرب أخذوا عن الاغريق ثم جاء الغرب فأخذ بدوره عن الشرق ...

على أن دور الشرق لم يقف عند هذا الحد أو ينته ...

فجميع أولئك الذين يحبون أرض الشرق ويتمنون رقيها وعظمتها كما يتمنون أن يسود السلام العالم بأسره . وجميع من قدموا لها قواهم وعبقرياتهم ودماءهم ليدركون ان لابد أن يتلألأ يوما فى أفق الانسانية المعذبة فجر أيام مجيدة لشرقنا العزيز الذى قاد الانسانية كلها ردحا من الزمن غير قصير .

فالى المدنية والمتمدينين نفتح بعض أبواب الشرق فى وجوه الشرقيين والغربيين لعل الأوائل أن يستردوا مجدهم التالد ولعل الأواخر أن يعترفوا للسابقين ...

البحيرة فى ٧ ذى الحجة ١٣٦١ هـ

١٥ ديسمبر ١٩٤٢ م

استدراك

وقع بعض أخطاء طفيفة بسبب سرعة الطبع

لا تخفى على فطنة القارىء الكريم

